مجلة الخريدة

العدد 1 - شهر جانفي 2016

مجلة إلكترونية - تصدرُ كلَّ شهرين تُعنَى بالأدبِ، والفكرِ، والثقافةِ

حدث هذا الشهر

18 ديسمبر: اليوم العالمي للُغة العربية

عبد المومن تلايلف

رؤوف بن الجودي

مهمّة المثقّف

المقالات

هدى الطرابلسي

حبٌّ حتى الجُنون

القصة والرواية

عمر خزّار

روح النشيد

القصائد

محمد بلكيف

إعجاز القرآن

نظرة في كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي

من التراث



حوار مع مبدع

الشاعر «عبد الوهاب بوشنَّة»

كتبت عن «القضية الفلسطينية» وعن معاناتنا بعد الربيع العربي المشؤوم الذي كان خريفا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كما كتبت عن معاناة إخواننا في «سوريا» و«بورما» و«العراق» وكل بلاد الإسلام المضطهدة...

نلتقـــي لنرتقـــي؛ ونجتمِـــع لننفَـــع وننتفِـــع

حوار مع مبدع

ضيف العدد

الشاعر عبد الوهاب بوشنّة

ص (5)



مجلّة الخريدة

العدد 1 - شهر جانفي 2016

للمشاركة في مجلّة الخريدة

أرسلوا نصوصكم عبر البريد الإلكتروني للمجلّة :

majalat.alkharida@gmail.com

أو عبر صفحتها على (Facebook) :

majala.kharida

افتتاحية

الحمد لله على نعمة البيان، وصلى الله وسلم على أحسن من نطق بالضَّادِ، منضودا في جوامعِ كلمِهِ كالجواهرِ الحِسَان.. أمَّا بعدُ:

ها قد تمَّ الوعد

لقد اجتمعتْ كوكبةٌ من زُبدةِ المثقّفينَ، والأدباء، والشعراءِ في هذا الفضاء، تحت سقف مجلةٍ واحدةٍ، اتخذت مِـــنَ « الخريدة »[1] اسمًا لها، لِمَا يحملُ في تجاويفِهِ من عقيدةِ حبِّ الجمالِ، والولهِ بالإتقان؛ كلُّ ذلك بهدفِ السَعي الحثيثِ لتجديد ميادين الأدب، والفكر، والفنِّ عمومًا...

لقد تمّ تحديدُ رؤيةِ المجلة على هذا الأساس المتين، ليكونَ لنا أدبٌ راقٍ، وفكرٌ مستنيرٌ، وفنٌ رفيع؛ كما تمّ رسمُ المسار بالاعتمادِ على الكفاءاتِ المتمرّسةِ، أصحاب الأقلام السيّالةِ، والأذهان المتدفقةِ، والمادة الكثيفةِ، والأساليب الأخاذة.. دون إغفالٍ للمواهبِ الواعدة التي تشقُّ طريقَها نحو النجاح.

فها هنا أساتذةٌ ينصحون، ونقّادٌ يقيّمونَ النصّ ويقوّمون؛ وبعد هذا للناشئِ منهم في النشرات - التي في طيّاتِ المجلةِ - القدوة الحسنة التي تكونُ له الدليل الحيّ الذي سيُضيءُ له بُنيّاتِ الطريقِ...

إنّ « الخريدة » ملاذُ كلِّ مبدع، ولن تكونَ حِكرًا على أقلام مُعيّنةٍ دون غيرِها؛ لهذا إن وجدتم للأركانِ المُثبتةِ ثلّةً تُداوِمُ على تحرير مادّتها، فها هنا -أيضا- مساحات أخرى غير محدودة لنَشر نتاج القلم، وعُصارة الفكر، ومولود الفنِّ.

فشعارُنا «نجتمع؛ لننفعَ وننتفع »!

1) الخريدة: اللؤلؤة التي لم تُثقب، والمرأةُ العذراء التي لم تُمس.

رئيس التحرير/ رؤوف بن الجودي.

حوار مع مبدع

حوار مع مبدع

ضيف العدد
الشاعر عبد الوهاب بوشنَّة

حاورته/ رحمة بن مدربل

عبد الوهَاب بوشنَة من مواليد 07 أكتوبر 1992م في مدينة أولف بولاية أدرار، حافظ لكتاب الله تعالى، متحصل على شهادة البكالوريا تخصص رياضيَات، وهو الآن طالب بالجامعة الإفريقيّة، لا يزال ينهل العلم ويحصله بشغف.

هو شاعر مبدع يرسم بالكلمات لوحاته المبهرة بريشة الشعر العمودي، وفقا لمدرسة الشعر التكعيبي (نسبةً إلى كعبِ بن زهير ﷺ) التي تُمثِلُ منارة الشعرِ الراقي الملتزم في بلادنا.

قصائده يجلّلها جلباب الإيمان، إذ يتبدّى نوره بين فواصلها ومقاطعها بين آن وآخر، وتعتمد على فتنة التصوير، وتتغنى بالوطن، بالجمال، بالحب، بالوجدان، إلا أن القاسم المشترك بين كل ذلك هو سحر الكلمة وقوة التعبير وأصالة الفكرة.

حصل على المرتبة الأولى في «الملتقى الوطني الأول لشعر الشباب» الذي احتضنته مدينة مستغانم الساحلية عن قصيدته «**تجليات متيم ثورية**». لم يمنعه تخصصه العلمي كطالب في الهندسة المدنية، من إبداء ميله الأدبي الذي كان غالبًا عليه وسكن وجدانه وروحه.

للتعرف على الشاعر عبد الوهاب بوشنة، والغوص في أغواره، ومعرفة بداياته الشعرية، كان لنا معه هذا الحوار الشائق...

س - بداية نرحب بك أستاذ عبد الوهاب على صفحات مجلتنا «الخريدة»، ونغتنم الفرصة لنهنئك بفوزك بالمرتبة الأولى في "الملتقى الوطني الأول لشعر الشباب" عن قصيدتك «تجليات متيم ثورية».

ج ــ أهلا وسهلا ومرحبا بكم في رياض الشعر وروابيه الواسعة، فالضاد مجلسنا والحرف أنيسنا..

س - بداية، وكطقس تعريفي أولي يربط بينك وبين جمهور قرائك، هلا أعطيتنا نبذة عن عبد الوهاب بوشنة الشاعر والإنسان؟

ج ــ عبد الوهاب بوشنة «الإنسان» هو كيان بسيط من روح تمارس البساطة إلى أقصى درجاتها وأبعدِ حدودها، أما عن عبد الوهاب بوشنة «الشاعر» فهو ذلك الكيان الذي يتطلع إلى المجد، فما يجزم بأنَّه أدركه حتَّى يستشعر أنَّهُ دونهُ بأميال.. ويتأكَّدُ هذا في قولي:

مهما شعرتُ بأنّ حلمي ينتهـــــي
يبقى طموحي من نجاحي أكبــــــر



عبد الوهاب بوشنَّة

وأمَّا عن عبد الوهاب بوشنَّة «الإنسان الشاعر» فهو مزيجُ هذين الكيانين اللذَيْن لا غنى لأحدهما عن الآخر.

س - هكذا يكون المبدع دائمًا يطمحُ إلى المزيد. بودِّي أن أعرفَ كيف كانت بداياتُكَ الأولى مع القصيدة؟ وفي أي سنٍ كان ذلك بالضبط؟ وهل لمحيطك

الاجتماعي أثر في ذلك؟

ج ـــ يُخطِئ الشاعر خطأً شنيعًا، إن ظنَّ أنَّه على دراية بلحظة ولادته الحقيقية كشاعر، ولكنه في الوقت نفسه قد يكون مصيبا عندما يستطيعُ حصرَ ميلادِ حُرُوفه الهامسة التي تتفجَّرُ عند الأزمات النفسية. لقد كان للمحيط الأسري والتعليمي، وخاصةً جوّ المدرسة القرآنية، دور كبير في تفجير موهبتي، حيث إني ختمت القرآن على يد الشيخ «قدي مبارك» يومَ كنتُ في السنة الرابعة متوسط، غير أنَّ ميولي الأدبية برزت ابتداءً من المرحلة الابتدائية، حيثُ كان معلمي يحفزني على كتابة الخواطر وحفظ الأشعار وقراءتها في المناسبات الوطنية كيوم العلم مثلا. وقد كنت أكتب ما يُشبهُ القصائد العمودية في مرحلة الثانوية مع كسورٍ كثيرةٍ في العروض.. أما فيما يتعلَّقُ بأولِ قصيدة موزونة سليمة من الكسور، فقد كانت تماما بعد صدمة إخفاقي في اجتياز السنة الأولى للجامعة بمعهد الصيانة والأمن الصناعي، أينَ هجوت فيها نظام أل.أم.دي، وصببت جام غضبي على الطرق المنتهجة فيه، ومن يومها وأنا أكتب الشعر بدون تكلف، وبكلِّ أريحية!

س - هذا صحيح فالصدمات والأوجاع الداخلية كثيرًا ما تقدحُ بدواخلنا الرغبة في البوح على كنف القصيدة، وأجمل الشعر ما صَدَرَ من قريحة عفوية بلا تصنع، أليس كذلك؟

ج ـ بلى أختي الكريمة، أضيفي إلى ذلك أنّني أملكُ حافظةً عجيبةً، لأنه من المعروفِ أنَّ الشاعر يولد شاعرًا، ولكنه لا يستطيعُ نظمَ الشعر إلّا بحفظ أشعار المتقدمين والمتأخرين، ثمَّ نسيانها لكي لا يقع الشاعر في فخِّ التقليد. ثم إن المطالعة لوحدها لا تثري المخزون اللغوي، فالشعر حالة اغتراب عجيبة، ومزيج من الخيال والإحساس وتجارب الآخرين.

س - نعلم أنّ لكل شاعر طقوسه عند توليد القصيدة، فما هي مصادر الإلهامِ لديك؟

ج ـــ قد يظنُّ الكثير من القراء أن للشاعر جوًّا خاصا يدخله إذا أراد الكتابة، ولكن الأمر على عكس ذلك، فالشاعر المطبوع والحقيقي تكتبه القصيدة وتملي عليه شروطها مع عدم إغفال تكيُّفها مع ثقافته، وذلك بهدف إبراز مدى تمكنه وقدرته على إيصال أفكاره إلى غيره، فما ينبع من القلب يلامس قُلوبَ الآخرينَ مُباشرةً.

" الشاعر المطبوع والحقيقي تكتبه القصيدة وتملي عليه شروطها مع عدم إغفال تكيُّفها مع ثقافته، وذلك بهدف إبراز مدى تمكنه وقدرته على إيصال أفكاره إلى غيره، فما ينبع من القلب يلامس قلوبَ الآخرينَ مُباشرةً "

أمَّا عن مصادري فهي كثيرةٌ، كالمطالعة، الخيال الشعري، الإضاءات القرآنية، التجارب الشخصية، مشاكل الآخرين، التدبر في ملكوت الله.. فكلما طرق الشاعر بابًا من هذه المصادر فإنَّ جزءًا من شعره -إن لم يكن كله- سيبقى خالدا.. لأن الشعر ليس وليد اللحظة فقط، بل هو حوصلة دروس نستلهمها من الحياة على صفحات الدهر.

س - هل لعبد الوهاب أوقات محببة لمراودة الشعر عن نفسه؟ ومتى تجد نفسك غارقا في تدبيج القصيدة بلا توقُّف؟ وما المواضيع التي تجذِبُكَ أكثر لتُؤثِرَها بالكتابة دونَ غيرها؟

ج ـــ والله ليس لي وقت معين أحبه دون آخر، ولكن يمكن القول إنَّ هنالك حالتين أجد نفسي فيهما غارقا في قرض الشعر:

الأولى حالة الحزن الشديد، لأن الحزن يولد ضغطا نفسيا كبيرا ربما لا أفرغه إلا بمعية الحروف، أفضفض لها وتفضفض لي عن مكنوناتها فأرتاح من الوجع.

أما الثانية فهي الحالة المواتية للانفعال، سواء أكانت فرحا أم غضبا أم عتابا للنفس أم تساؤلا.. وحين أدخل في «حالة الاغتراب» سأبدو كرجل حديثَ عهدٍ بمصيبةٍ. وفي هذا المقام لعلّي أذكرُ بيتا للشاعر «أحمد بخيت» يقول فيه:

أصغي إلى صمت الشهيد يقول لي

أن الكتابة حالة استشهاد

س - نعم! خلجات النفس وانفعالاتها تملي علينا الكثير في الكتابة والإلهام، دام إيقاعُ نبضك

شعريا. وفي هذا السياق، اطلعت على عِدّة نصوص لك، أين لاحَ لي فيها حرصُكَ على اللغة والنسق المعنوي، فمن أيِّ منهلٍ تغترف هذه اللغة الجزلة؟ ولمن تقرأ في العادة؟

ج — ترجعُ قوّة اللفظ عندي بسبب تأثري بالقرآن الكريم، فقصائدي يغلب عليها كثيرا طابع الاقتباسات القرآنية التي تأتي طواعية ودون تكلف، إضافةً إلى تأثُّري بالشعر الجاهلي. أمَّا عن الشعراء الذين تأثَّرتُ بهم فلا حصر لهم، وعلى رأسهم مالئ الدنيا وشاغلُ النَّاس «أبو الطيِّب المتنبي» الذي ما من شاعر يبلغ مرتقى عاليا في عالم القصيد إلا وله في عنقه منَّة!

والشعراء أكبر من أن يُحصَوا، ولكنني أقرأ كثيرا لـ«أبي تمام» و«أبي العلاء المعري» وأغلب شعراء الجاهلية. أما عن الشعراء المحدثين فأقرأ لـ«أحمد شوقي»، و«حافظ إبراهيم»، و«أحمد مطر» و«الجواهري»، و«عمر أبو ريشة»، و«بشارة الخوري»، و«إيليا أبو ماضي»، و«أبي القاسم الشابي»، و«مفدي زكريا»، و«عبد الرزاق عبد الواحد».

أما عن الشعراء الحاليين الذين تأثرتُ بهم، فأذكر اثنين لا أفضل عليهما أحدا: «أحمد بخيت» و«وليد الصراف».



عبد الوهاب بوشنة

س - هل جرّبَ الشاعر عبد الوهاب ضروبًا أخرى للكتابة؟

ج — جرَّبت الكتابة في غير الشعر العمودي مرتين فقط! وهذا الذي يحصلُ معي تجدينه عند أغلب شعراء الصحراء والبادية، لأنهم يتأثرون كثيرا بطبيعتهم التي تُشبِه ما كان عليه أسلافهم، فتراهم قليلا ما يبتعدون عن القصيدة وعروضها، ويجدون في ذلك متعة أيما متعة، ولكن حب العمودي طغى على كياني ولا أنكر أنه يمكنني أن أكتب مستقبلا في غيره.

س - بعض النقاد يرون أن قصيدة النثر هي سقف الإبداع، بينما يعتبرها آخرون فارغة من المضمون والشكل، ما رأيكم في ذلك؟

ج — أصلا يجب أن نتفق على شيء في هذه النقطة الحساسة، فإذا كان النثر له ما يجعله قائما بذاته من أساليب وطرق وأغراض، فكذلك الشعر هو فن قائم بذاته، يقوم على أغراض وأساليب وصور وعروض إلى غير ذلك.. ثم إنه إذا كان النثر يؤدي وظائف يوصل بها انفعالات عدة، كالنقد والعتاب والسخرية والفرح والحزن.. فإن الشعر يكون أرقى مرتبة منه باعتباره أكفأ الكلام، فإذا كان النثر يجعلكَ تنتشي، فعلى الشعر أن يصنع بك أضعافَ ذلك!

وإذا كان النثر يصلحُ للنصح والعتاب والرثاء، فإن الشعر يوصل تلك الانفعالات إلى ذهن المتلقي أكثر منه. ومن جهة أخرى، إذا كان للشعر موسيقى داخلية تجعله يتميز بها عن غيره من الكلام، وصورٌ في قالب موزون تجعل حفظ الأمثلة والاستشهادات أسهل، فكيف يمكننا أن نجمعه والنثر في صنف واحد؟!

ثم لماذا يتسابق العلماء في نظم المتون العلمية على شكل قصائد وأراجيز؟ كل هذا يوضح شيئا واحدا هو أنَّ الشعر سهل الحفظ والاستذكار، لو قلت لك:

قطعت جهيزةُ قول كلّ خطيبِ

....

قد يقول لي إنسان لا يعرف الشعر إنه مثل سائر؛ في حين أنه شطر لبيتٍ منَ البحر الكامل، وإلا لما ذاع صيته وسهل حفظه، وكلُّ ذلك بسبب موسيقاه السلسة!

إذن، ما يُطلق عليه «قصيدة النثر» لا يمكن قبوله في المنطق الأدبي، لأن القصيدة قائمة بذاتها فكيف يمكن للنثر أن يجتمع معها، وإن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا.

والتاريخ مليء بالأدلة القاطعة عن الكم الهائل الذي فشل في إرساء ثقافة ما يسمى بـ«قصيدة النثر» المغلوطة، بسبب أن الشعر لا يُزاحِمُهُ شيءٌ في التوثيق لمآثِرِ العربِ وبطولاتهم، وإلا لما كانوا سمَّوهُ «ديوان العرب».

س - إذا عرجنا على الأحداث الراهنة، والاضطرابات التي يمر بها العالم العربي والإسلامي عامة من فوضى وفتن.. ما نصيب هذه التداعيات كلها من شعرك؟

ج ــ لهذه القضايا من شعري الحظُّ الوافرُ، فقد كتبت عن «القضية الفلسطينية» وعن معانات دُولنا العربية بعد الربيع العربي المشؤوم الذي كان خريفا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وقد كتبت عن معاناة إخواننا في «سورية» و«بورما» و«العراق» وكل بلاد الإسلام المضطهدة.. كما أنني كتبت في الوجدانيات بغزارةٍ في بداياتي، والشاعر الذي لا يتبنى قضايا أمته ولا يتكلم عن مآسيها ولا ينطق بأوجاعها؛ فشعره مردود عليه!

> ”كتبت عن «القضية الفلسطينية» وعن معاناتنا بعد الربيع العربي المشؤوم الذي كان خريفا بكل ما تحمل الكلمة من معنى وقد كتبت عن معاناة إخواننا في «سوريا» و«بورما» و«العراق» وكل بلاد الإسلامة...“

س - جميل أن يكون الشاعر مُلِمًّا بقضايا أمته ومنافحا عنها، ولأننا نتحدث عن إنتاجك الأدبي، فإنّ كل شاعرٍ ومبدعٍ ينتظر بفارغ الصبر باكورة أعماله، فمتى يطل علينا مولودك الشعري على الساحة الأدبية الجزائرية؟ وماذا سيكون عنوانه؟

ج ــ سيطل عليكم ديواني الأول قريبا لو سارت الأمور على أحسن ما يرام، رغم أنني ما زلت لم أفكر في عنوان مناسب له، ومتى كان ذلك فسيكون لكم نصيب منه.

س - بحديثنا عن ديوانك المرتقب وعن موضوع النشر، كيف ترى فرص جيلك من الشبّان في طبع ونشرِ كتاباتهم هنا بالجزائر؟

ج ــ لا أكتمك أني أجد فرصة جيلنا في النشر ضئيلة ونزيرة، بالنظر إلى الكمِّ والنوع الموجودين في بني جيلي من المبدعين، الذين أرى فيهم حماة للكلمة الراقية والرسالة الهادفة، وهذا بشهادة كبار الشعراء.. ومناط التخلص من هذه المشكلة، هو تكثيف جهود الإعلام لإخراج تلك المواهب من أوحال التهميش.

س - في الأخير، أريد معرفة رأيكَ في التجربة الشعرية لدى الجيل الجديد من الشباب المبدع في الساحة الأدبية الجزائرية؟

ج ــ عن تجربة الشعراء الشباب أستطيع أن أجيبك بكل ثقة، أن هناك فرسانًا حقيقيين للكلمة الهادفة والهامسة التي تلامس قلوب المتذوقين والنقاد، وأذكر لك كوكبة مؤزرة منهم: «مصعب بلهادف»، «أحمد بوفحتة»، «أسامة رزايقية»، «رشيد دحمون»، «محمد بوثران»، «أنور بومدين»، «جمال الدين الواحدي»، «أحمد ضياء الحق سنينة»، «صبيرة قسامة»، «هارون عمري»، «وليد بوخزة»، «عادل سوالمية»، والكثير الكثير من المبدعين.

س - كلمة أخيرة..

ج ــ في الأخير يطيب لي أن أشكر شيوخي الأوائل الذين حفزوني على المضي قُدُمًا في عالم الشعر، وهم: **عمر بوشنة**، والأستاذ **عادل حميد**، والأستاذ الناقد **رؤوف بن الجودي**، وعندليب الشعر **أحمد العماري**... وتحية كبيرة لرواد المدرسة الكعبية، وعلى رأسهم مؤسسها الشاعر الأستاذ **محمد جربوعة**، والشاعر الإمام **رمضان بونكانو**.

«**فالمطالعة** هي الطريقة المثلى (بل الوحيدة) التي يكتشف بواسطتها القارئُ ما عند غيره من معلومات في شتى ضروب المعرفة، لأنَّ الكاتب -أي كاتب- إذا تأهَّب للتأليف، وتربَّع للكتابة، فإنَّهُ يضعُ عُصارة فكره، وخلاصة أدبه وعلمه بين دفتيْ سِفرِهِ».

[مقالة «الثقافة والمطالعة» - رؤوف بن الجودي]



المَقالات

المَقالات

مُهمة المثقــــف

رؤوف بن الجودي

لقد باتَ جليًا اليوم، أنّ الطُرقَ المسلوكةَ للنهوضِ بالأمّةِ الإسلاميةِ من براثن التخلّفِ، ومزالق الانحطاطِ؛ هي طُرقٌ عقيمةٌ لم تُبنَ على قاعدة شاملة، ولا على تصوّرٍ سليمٍ للمشكلة. وبعدَ مُضيّ ربع قرنٍ من الزمان، لم نرَ فسيلةَ تنميةٍ تتبرعم، ولا بصيصَ أملٍ ينتشر، بل كلّ ما هو موجود: دولٌ غارقة في المشكلات، تتجرّعُ هزائمَ تكدّست رواسبُها عبر عقودِ من الزمن.. ودُولٌ أخرى جرفتها فوراتٌ خاطئة كاذبة، تحت شعارِ مفبركٍ «الربيع العربي».. هذه الهبَّةُ التي جلبت على الأمَّة الفقر، والفوضى، والفتن، ليغرق المغرب العربي والشرق الأوسط في حماماتِ دمٍ تحتَ نظرِ وسمعِ أمريكا (عليها من الله ما تستحقّ)، ودُول الناتو (قطع الله أيديهم جميعا)!

اِختلفت القراءات لهذه الأزمة إلى درجةٍ أفضت إلى النقيض الخالص، فمن المحلِّلين مَن يقول بنظرية المؤامرة، مُغفلا البحث في المسبِّبات، ومنهم مَن يفسِّرُ المشكلة مِن منطلق «براغماتي» بحت، ومنهم من يبحثُ المسألة حسب هواهُ، فيُطلق تبريراتٍ واهيةً للسياسات الإمبريالية المنتهجة بدافع المحافظة على الأمن (أو ما يطلق عليه المفكر مالك بن نبي مصطلح «سياسة الأبوية»)[1].

فتَحْتَ ظلِّ هذهِ الصراعات الخارجية وأخرى داخلية، وجدَ المُثقّفُ نفسهُ بين المطرقة والسندان، يحملُ في فكره أجساما غريبة، دخلت عليه عن طريق العولمة (وعبر طرقٍ أخرى كالتعليم، والسفر...إلخ)، يمنعهُ شعورُهُ بالدونية اِتجاهَ ثقافته، ولغته، ودينه، من القيامِ بدوره الأساسي في صناعة الوعي، وتوجيهِ الفكر.

• دور المثقّف في صناعة وعي الأمّة

إن ثقافة الأمَّة بمثابة الحمض النووي (ADN) في جسم الإنسان، فكما أنَّ هذا الحمض هو المسؤول عن تمييز كائنٍ بشريٍّ عن كائن آخر، فإنَّ الثقافة -أيضا- هي ما تميِّزُ أمَّةً عن أمَّةٍ أخرى.

ويكفي أن نعرف أنَّ الثقافة في جوهرها هي «مجموعة من الصفات الخُلُقية، والقيم الاجتماعية، التي يتلقَّاها الفردُ منذُ ولادتِهِ كرأسمال أولي في الوسطِ الذي وُلِدَ فيه. وعلى هذا هي المُحيط الذي يشكِّلُ فيه الفرد طباعه، وشخصيته»[2]؛ لنستطيعُ القول -عندئذٍ- أنَّها من الجانب النفسي/ الاجتماعي شخصية الأمَّة التي تتجلَّى في سلوكها ومواقفها وقراراتها، وفي قيمها التي توجِّه

> **"الثقافة من هذا الجانب (الجانب النفسي/ الاجتماعي) هي شخصيةُ الأمّة التي تتجلّى في نمطِ معيشتها، وفي شكل مواقفها وقراراتها، وفي القيمِ والمبادئ التي توجّهُ الأخلاق، وفي مقدار الوعي الذي يوجّهُ الأفكار"**



رؤوف بن الجودي

الأخلاق، وفي مقدار وعيها بما يجري حولها من أحداث.

فصناعةُ الوعي عملية تنشأُ من ترسُّبِ خبراتٍ مُتكرِّرةٍ تُكلّلُ بالظفر أو بالخيبة. وعند الثانية (أي الخيبة)، تنطلقُ عملية البحث عن حلول جديةٍ لِاحتواء هذه الانتكاسة، فتتكوَّن في أول الأمر صورة عامة عن المشكلة، تنتجُ حلولا ساذجة غير فعَّالة (أو لنقل حلولا لا تمسُّ جوهر المشكلة)، وقد تتطوَّر –مع الخبرة– لتصبح أكثر نضجا وفعاليةً.

فأوَّلُ السبيل للوصول إلى حلٍّ ناضجٍ، أن نُلاحظَ المسبِّبات التي ولّدت المشكلة، ثمَّ تحليلها تحليلا موضوعيًّا/ منطقيا يستند إلى الحقائق لا الفرضيات، ثمَّ وضع خطَّة مُمنهجة تَعمل كمنقذٍ للخروج من الأزمة الراهنة، ثمَّ تحديد الزمن المطلوب لتطبيق الخطَّة وفق المنهج المُسطَّر، وفي الأخير الحرص على ديمومة المشروع لضمان عدم وقوع نفس الأخطاء.

ومن المؤكَد أنَّهُ ستشارك في هذه المراحل الخمسِ جميعُ الشرائحِ الفاعلة في هذا المجتمع: ابتداءً من العامل البسيط، وصولا إلى صاحبِ القرار، كلُّ ذلك تحتَ إشراف أهل الاستشراف، الذين يرسمون الخطوط العريضة لمشاريع التنمية الضخمة البعيدة المدى[3].

فإذا شبَّهنا هذا المثقَّفَ/ المفكر بالمهيِّئ العُمراني (Aménageur) وهو الشخص الذي يضعُ تصوُّرًا شاملا لشكل المدينة وهيئتها، من مبانٍ وشوارعٍ، ومرافقٍ... فيستعينُ –لا محالة– بالجيولوجي الذي يدرس طبيعة التُّراب، وبالسيسمولوجي الذي يشيرُ عليه بتفادي البناء على المناطق الزلزالية، وإلى الطبغرافي الذي يرفع له في مخطط شكل الأرضية المزمع البناء عليها، وإلى المهندس المعماري الذي سيصمِّمُ له ملامح العمارات، وإلى المهندس المدني الذي سيستشيره في المقادير المُستخدمةِ في البناء (كالإسمنت، والحديد وكميَّات الرمل المناسبة...إلخ.

وبنفس الطريقة يصنع المُفكِّرُ مع شرائح المجتمع المختلفة، وذلك حين يضعُ مشروعًا ضخمًا للنهوض بالأمَّةِ من وحل التخلُّفِ إلى الرقي والازدهار، والانتقال بها من حمأة الانحطاط إلى السموِّ والتطوُّرِ.

• دورهُ في توجيه الذوق العام

لقد تنكَّأ المثقَّفُ منذُ عقودٍ عن القيام بدوره الفعَّال في توجيه الذوقِ العام، حتى فقدت الأمَّةُ قُدرتها على تذوّقِ الجمال، ومعرفة الفنِّ الهابطِ من الفنِّ الرفيع، فكانت فرصةً سانحةً كي تنتشرَ الفوضى الخلَّاقة في الميادين الثقافية والأدبية. فدخل على هذه الميادين مَن ليسوا لها أهلا، فكثر الدُخلاءُ في كلِّ فنٍّ؛ لدرجةٍ أصبحَ المُبدعُ الحقيقيُّ يستحي أن يُذكرَ اِسمُهُ مقرونًا باِسمِ الفنِّ الذي يُزاوِلُهُ!

فهذا التقاعس كان من بين الأسباب التي دفعَت بالجيلِ الجديدِ للاِعتراضِ عن كلِّ موروثٍ ثقافيٍّ، واستبداله بالبضائع الثقافية الغربية التي دخلت بيوتات المسلمين عن طريق الفضائيات، والإنترنت... فمسخت الطبائعَ، وغيَّرت النفوسَ، وطمست القيم، وألحقت فكرَ الأمَّةِ المؤمن بالفكر الغربي الملحد!

"هذه التبعية قد جلبت علينا آثارًا وخيمةً، جعلت النشءَ ينبذُ لغته «العربية»، ويُعادي دينَه «الإسلام»؛ ولم يكن حُدوثُ هذا السقوطِ في لُجَجِ الضياعِ الإنساني بغريبٍ على أصحابِ استقراءِ الأوضاعِ الاِجتماعية؛ لأنّ معروفٌ لديهم أنّ «الطبيعة تأبى الفراغ»"

كما أنَّ هذه التبعية جلبت علينا آثارًا وخيمةً، جعلت النشءَ ينبذُ لغته **«العربية»**، ويُعادي دينَه **«الإسلام»**؛ ولم يكن حُدوثُ هذا السقوطِ في لُجَجِ الضياعِ الإنساني بغريبٍ على أصحابِ استقراءِ الأوضاعِ الاِجتماعية، لأنَّ من المعروف لديهم أنَّ **«الطبيعة تأبى الفراغ»**. فالاستعمار –قبيل نصف قرن– تجشَّمَ تفريغَ المُسلم من عقيدته وثقافته ولغته، وملأها بعقيدة كافرة، وثقافة سافرة، ولغة لقيطة؛ تُناوئ أصالته وإنسانيته.

• خُلاصة

بات واجبا على كلِّ مثقفٍ واعٍ؛ أن يسترجعَ مكانته في المُجتمعِ، بمسح الغبارِ عن وجهِ الثقافةِ المهدَّدةِ بالزوال، لسبب ظاهرٍ هو أنَّ أعداءَها كثر، وحماتَها قلة، وأبناءَها في غفلة من أمرهم، يجهلونَ جهلا تامًّا ما يُحاكُ ضدَّهم[4]، فإذا لم تقم هذه الصحوة الثقافية الفكرية الأدبية على يد المثقفين؛ فعلى أيدي مَن ستقوم؟![إهـ].

---

1) كتلك السياسات التعسفية التي تطلق مثل هذه التبريرات كقولهم: القضاء على الإرهاب الدولي، وحملة نزع السلاح، وحضر أسلحة الدمار الشامل!

2) مالك بن نبي. «شروط النهضة». ص3 8.

3) أما التفاصيل فيرسمها أهل الاختصاص، فالعمارة يُصممها المهندس المعماري، والسيارة يصمِّمُها المهندس الميكانيكي، والخزانة يصنعها النجَّار... وهلمَّ جرًّا. وسيأتي مثال الذي ذكرناه.

4) لقد قطع الأعداءُ أشواطا كبيرة في تلك المشاريع الماكرة التي هدفها الهدمُ والردم!

اللغةُ وسِحْرُ الشِعر

لبنى خشّة

لم يعرف الإنسان السحر إلاّ يوم أدرك قوة الكلمة، ولم يعرف الشعر إلاّ يوم أدرك قوة السحر، فاللغة والسحر والشعر ظواهر مترادفة في حياة الإنسان، والشعر هو الامتداد المستمر للاكتشاف الدائم لعالم الكلمة، ومن ثَمّ كان الشعر الوسيلة الوحيدة لغنى اللغة وغنى الحياة.

إن ما يميّز التعبير الفنّي هو طريقة نسج كيانه أو بناء لغته، واللغة هي الظاهرة الأولى في كلّ عمل فنّي يستخدم الكلمة كأداة للتواصل، كما تعتبر المفتاح الذهبي الذي يفتح كلّ الأبواب التي من خلالها نعبُرُ إلى الفضاء البعيد، ونحلّق في آفاق شتّى، لذلك كان الشعراء على وعي كافٍ بوظيفة اللغة حيث أدركوا أنّ الكشف عن جوانب الحياة يستلزم بالضرورة لغة تناسب كل فترة من فترات الحياة، فليس من المنطقي أن تعبّر اللغة القديمة -لغة الشعر الجاهلي مثلا- عن التجربة الجديدة في الشعر الحديث، فقد أيقنوا أن لكل تجربة لغتها، وأن التجربة الجديدة ليست إلاّ لغة جديدة أو منهجا جديدا في التعامل مع اللغة.

إنّ لكل عصر همومه ومشاكله وقضاياه، والإنسان مطالب في كلّ عصر بأن يواجه كل فعل من خلال اللغة التي تتكيّف بحكم ما في طبيعتها من طواعيّة ومرونة، ووفقا لكل فعل وكل موقف، فتتحمل الجديدَ من الشحنات التعبيرية كلما تجددت الأفعال والمواقف، ومن ثم تبقى اللغة أوضح وأقوى وأدلّ ظاهرة تتجمع فيها كل سمات الوجه الحضاري الذي تعيشه الأمة.

ولم يعد الشعر ذلك الكلام الموزون المقفى الذي يدل على معنى خاضع لمقتضيات الأحوال، بل أصبح إطارا يلتئم فيه اللفظ والمعنى معا، لا أسبقية لأحدهما على الآخر. كما اقترن بأشياء غير محدّدة، كالكشف والمعرفة والذات والحلم وغيرها من المفاهيم[1].

ولأنّ الشعر حافز على الإحساس بالجمال، فغالبا ما يتبادر إلى أذهاننا أسئلة من قبيل: كيف تتولد القصيدة؟ وكيف تتجمع وتتوحد عناصرها في شكل فنّي له تأثير انفعالي عاطفي؟



وقد تحدّث فيلسوف إغريقي عن الشاعر بأنه هو الذي يأسر السماء والأرض داخل قفص الشكل، وقد تكرر القول بأنّ الشعر يملأ المسافة بين الطبيعة والأرض وبين الطبيعة وما وراءها. أمّا كيف يتسنى له أن يصل إلى ذلك؟ فقد وصفه «لوتشي» بقوله: «يجلس الشاعر على محور الأشياء، ويتأمل في سرّ الكون ويغذي عواطفه وعقله على مآثر الماضي العظيمة، وإذ يتقلب مع الفصول الأربعة يتنهد لمرور الزمن، وإذ ينظر إلى ملايين الأشياء يفكر في تعقيد هذا العالم، فيحزن لتساقط الأوراق في الخريف المفعم عنوانا، وتملؤه غبطة أكمام الزهر الناعمة في الربيع العطر، ويعاني برودة وقلبه حافل بالرهبة، فإذا اطمأنت روحه حوّل نظرته إلى الغيوم، وروى نتاج الأسبقين الفائق، وأخذ يتغنى بالعبير النقي الذي خلقه القدامى المتفوقون، وتجوّل في غابة الأدب ممتدحا تناسق الفنّ العظيم، وإذا اهتز هزّة المنفعل رمى بالكتب بعيدا وتناول ريشته ليعبر عن نفسه في كلمات»[2].

> **"وحين نعلم أن الشاعر هو الذي يـزاوج بـين احسـاسـه وإحسـاس الطبيعة، يـزاوج بين عنصر معقد وعنصر آخر فإنه يبرز الإمكانيات الكامنة في كل العنصرين معا، فيحدث بذلك تواترا بين المعاني في القصيدة فيدفعنا إلى أن نرى شيئا مثيرا وهاما"**

وحين نعلم أن الشاعر هو الذي يزاوج بين إحساسه وإحساس الطبيعة، يزاوج بين عنصر معقد وعنصر آخر، فإنه يبرز الإمكانيات الكامنة في العنصرين معا، فيحدث بذلك تواترا بين المعاني في القصيدة فيدفعنا إلى أن نرى شيئا مثيرا وهاما، فيكون بذلك الشعر حافزا على الإحساس بالجمال، ويكون الجمال مثيرا تمتزج فيه اللذة بالفائدة، ومن ثم الوصول إلى حقيقة الطبيعة[3].

والشعر هو اللغة الإنسانية الأولى من حيث هو تعبير ذو طبيعة حسية، يخضع لنوع من التنظيم أو التشكيل يبين عن شعور بلغ درجة الانفعال، فحرّك الخيال الذي تأطّر في سلسلة من الصور.

أما البناء الشعري في صميمه فهو بناء علائقيّ يقوم على العلاقات المتبادلة بين العناصر، كل منها حاكم للآخر ومحكوم به، لذلك فالبدء بالجانب الصوتي وعلاقته بالمعنى -على تناقضهما ظاهريا- جزء لا يتجرأ من دلالة القصيدة، ليس في تكوينها العام فحسب، بل في بناء كل جملة لغويّة منها، وفي علاقة هذه الجملة بما يليها من جمل، علاقة إيقاع كما هي علاقة معنى.

"كان الشعر هو اللغة بمعنى من المعاني لانّ اللغة الشعرية لا تتحقق إلاّ على مستوى التركيب الذي يقوم على خرق منطقة العلاقات المألوفة في اللغة العادية عن طريق الانزياحات التي يحدثها بين الكلمات والجمل والمقاطع"

لذلك توصف اللغة الشعرية بأنها بنية صوتية وتركيبية ودلالية[4]، كما تعتبر فضاءً شاسعا من الإيحاءات باحتوائها على مجموعة تراثية متنوعة تقترب إلى الحلم أو ما يعرف في الاصطلاح بـ«الرؤيا»، وما تحمله من هواجس الحنين إلى المجهول.

ومن هنا كان الشعر هو اللغة بمعنًى من المعاني، لأن اللغة الشعرية لا تتحقق إلا على مستوى التركيب الذي يقوم على خرق منطقة العلاقات المألوفة في اللغة العادية عن طريق الِانزياحات التي يحدثها بين الكلمات والجمل والمقاطع.

كما أن اللغة الشعرية لا تحدّد إلا من خلال وظيفتها البنائية داخل القصيدة، وهي وظيفة مزدوجة في بُعدها: ترمي من جهة إلى التواصل بحملها مضمونا ما، وتهدف من جهة ثانية إلى التأثير الجمالي نفسه في المتلقي[5].

لذلك نميّز داخل اللغة الشعرية بين مستويين: مستوى إخباري تواصلي، ومستوى رمزي إشاري، ولا فصل بين المستويين، إذ العلاقة بينهما جدليّة تنهض على الإضاءة المتبادلة، فبدون المستوى الأول يتحول الشعر إلى ألغاز وطلاسم، وبدون المستوى الثاني لا تتحقّق الشعريّة وينعدم الفرق بين الشعر والكلام العادي، ونصبح آنذاك في أحسن الأحوال أمام نثر موزون، وباتحادهما معا نصل إلى سحر الشعر وأعلى درجات الجمال.

«ويرى بولتون.. أنّنا سنجد في كلّ أيّ قصيدة ما لا نستطيع تحليله وفكّ رموزه، لأنه لا يوجد إلا في القصيدة بجملتها، وحين نحاول أن نعرف لماذا تمتّعنا قصيدة ما، فإنّ علينا أن نفصل أجزاءها المختلفة، والسبب في هذا عمليٌّ بشكل ساذج، فمع أنّنا نستطيع أن نصف هذه الأشياء في نفس اللحظة، أنّنا نستطيع أن نفكر في عبارتين كاملتين معا في وقت واحد، وبعد أن نفصل العناصر المختلفة التي تكوّن القصيدة، سنجد شيئا ما قد فُقِد.. إنّ أحدًا لن يستطيع تحديد العنصر الحيوي في القصيدة تحديدا قاطعا»[6].

لذلك يرى أدونيس أن القارئ الحقيقي كالشاعر الحقيقي لا يُعنى بموضوع القصيدة، وإنّما يُعنى بحضورها كشكل تعبيري، أعني صيغة الرؤيا، أيّ الحلم المترامي بين حسّ اللغة وسحر التعبير. [إهـ].

---

1) آمنة بلعلى: أثر الرمز في القصيدة العربية المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية تيزي وزو، 1995، ص6

2) محمد حسن عبد الله: الصورة والبناء الشعري، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ص: 175

3) المرجع السابق: بتصرف ص: 178

4) آمنة بلعلى: أثر الرمز في القصيدة العربية المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية تيزي وزو، 1995، ص: 75

5) حسن مخافي: الوقوف على جدار اللغة، بحث في قضية اللغة لدى حركة مجلة شعر، ص: 01

6) محمد حسن عبد الله: الصورة والبناء الشعري، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ص: 20

«الطاهر وطّار»

ورحلة العودة إلى الله

عبد الله لالي

«الطاهر وطّار»[1936-2010م] اسمٌ لامعٌ في سماء الأدب الجزائري بلا شك، وقد أطلق عليه البعض لَقَبَ «رائد الرواية الجزائريّة»، وقد يكون هذا اللقب صحيحًا إلى أبعد الحدود، لكنّ الذي سأتناوله في هذه الدراسةِ هو أمر جوهري يتعلّق بشخصيّته، وما طرأ عليها من تحوُّلٍ فكريٍ كبيرٍ..

•وطار اليساري القح..

كان «الطاهر وطار» في رواياته الأولى يساريّا قحّا، ناقمًا على الملكيّة الخاصّة ثائرا على الدّين والعادات والتقاليد البالية (وفقا لفهمه)، ويتجلّى ذلك -أكثر ما يتجلّى- في روايتي «الزلزال»[1974م] و«اللاّز»[1974م]. كنتُ قرأت كلتا الروايتين بنظرة الناقد المتفحِّص، فتكوَّنت في ذهني صورة قاتمة عن «الطاهر وطّار»، وكنتُ على علمٍ بخلفيته الفكريّة، بل أكثر من ذلك كنت أنظر إليه على أنّه كاتب تافه، لا يستحق حتى مجرّد القراءة، وإنما قرأت له لأعرف حقيقته أكثر وأتكلّم عنه إذا ما تطلّب الأمر على بيّنة ومعرفة راسخة..

> «الطاهر وطّار» اسمٌ لامعٌ في سماء الأدب الجزائري بلا شك، وقد أطلق عليه البعض لَقَبَ «رائد الرواية الجزائريّة»، وقد يكون هذا اللقب صحيحًا إلى أبعد الحدود..

والحقيقة أني قرأت الرواية الأولى «الزلزال» بقرف شديد، ليزداد كرهي للطاهر وطار ولكلّ ما يكتبه، ورأيت كيف يجعل من رمز التديّن رجلا برجوازيّا يخاف على ممتلكاته وأراضيه من التأميم فيسعى إلى كتابتها بأسماء أقاربه الذين نسيهم منذ أمد بعيد، حتى يتفادى مصادرتها منه.. وكانت شخصيّة «بولرواح» النموذج السيِّئ للرجل المتديّن الذي يقف في وجه القرارات التقدميّة الجريئة التي اتخذها الرئيس الراحل «هواري بومدين» [ت1978م] آنذاك..

ثمّ قرأت بعد ذلك رواية «رمانة»[1971م]، فالذي يدخل ماخورا -أكرمكم الله- لا يبعد كثيرا عن الذي يقرأ «رمانة»، وقرأت أيضا رواية «اللاّز» ليزداد سَخَطِي وحَنْقِي على وطار، خاصةً لما رأيته يعطي الريادة في تفجير الثورة التحريريّة للحركة الشيوعيّة، ويجعل من البطل اللاّز اللَقيط قائدا مثاليا لا يُشقُّ له غبار.. كان ذلك مُنتهى السخف والإسفاف، لكن مع ذلك كنتُ أعترفُ له بـ«فنِّ السَّرد الأدبي المتميِّز».

لما اطلعتُ على خلفيات حياته، وعرفت أنّه في بداياته كطالب كان «باديسيا/ زيتونيا» [1950-1954م]، أسفت لأنّه انسلخَ من جلده وارتمى في أحضان الفكر الماديِّ المفلس.. ليجيء الاكتشاف لشخصية «وطّار» الجديدة!

•تحوّل جديد في شخصية وطّار..

جاءت فترة التسعينيات، حين كنت أتتبع نشاطات «الطاهر وطار» في «جمعية الجاحظيّة»، وانبهرتُ بإنجازاتها، فالجمعية كانت تتفوق في نشاطاتها المتنوعة على وزارة الثقافة ذاتِها. ولقد لمست نوعا من التغيّر الخفيّ في شخصيّة «الطاهر وطار»، رغم إصراره على تبنِّي «الفكر الاشتراكي» الذي لم يعد يظهر في كتاباته بمظهرٍ سافرٍ.

بدأ الطاهر وطار يميل إلى تجسيد الفكر الصوفي في رواياته، أو لنقل بدأ يمزج بين الصوفيّة والشعريّة التي صارت نَفَسَ السّردي الجديد للرواية، فخرج علينا الطاهر وطار بروايته «الشمعة والدهاليز»، وظهر فيها نوع من الاعتدال والرؤية الوسطيّة للأحداث والواقع الجزائريّ،



الطاهر وطار

ثمّ ظهرت رواياته الأخرى «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكيّ»، «والولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء»، وكذلك «قصيد في التذلّل»، وكلُّها تعبِّر بشكل جليّ عن تغيّر واضح في فكر وطار، وأنّه اِنحاز إلى الفكر الإسلامي.. وكان كلُّ ذلك مجرَّد اِستنتاج منّي، أكّدته بعد ذلك عدّة مؤشرات أخرى، غير نصوصه الروائيّة التي تبقى خاضعة لقراءات مختلفة، أذكر منها:

1 – تسميته لجمعيته بالجاحظيّة، وهذا انتماء صريح للعربيّة، ممثلة في أحد روادها الأفذاذ أبي عثمان الجاحظ.

2 – في كثير من حواراته للصحف والجرائد، كان يُظهر اِعتزازه بالحرف العربي واِنتماءه الإسلامي، وينتقد في عنف دعاة الفَرْنَسَة، أو ما اِصطُلح على تسميتهم فيما بعد بالاِستئصاليين.

3 – في جلسة خاصّة مع الشاعر «عبد الكريم قذيفة» (كان مخرجا بإذاعة بسكرة الجهويّة حيث كنت أعمل متعاونا، وكان عضوا بالمكتب الوطني للجاحظية)، سألته عن هذا التحوُّل الذي لامستُه في فكر الطاهر وطّار، لاسيما في رواياته الجديدة، فأكّد لي حقيقة هذا التحوّل، وأكثر من ذلك، حينَ أخبرني أنَّ أحد أعضاء المكتب الوطني هو إمام من أدرار توفي –رحمه الله– في تفجير وقع بالعاصمة.

4 – جائزة مفدي زكرياء المغاربيّة التي أنشأها الطاهر وطار تُنْبِئ عن تحوّله الفكري بشكل واضح، إذ يخلّد الشاعر الإسلامي الصرف شاعر الثورة التحريريّة مفدي زكرياء رحمه الله.

5 – علاقته الطيّبة بالإسلاميين، وعلى رأسهم أحد أكبر شعراء وأدباء الحركة الإسلاميّة وهو الكاتب الشهير «عبد الله عيسى لحيلح»، حيث كانت تربطه بوطّار علاقة حميميّة وطيدة..

6 – كثير من الكتّاب والنقاد لاحظوا هذا التحوّل، أذكر مثلا:

ما قاله «عبد القادر أنيس» في موقع «الحوار المتمدّن»، بحيث يُعاتب ويلوم الطاهر وطار على هذا التحوّل الذي هو في صالح الانتماء الإسلامي:

«ما دفعني لكتابة هذه المقالة هو ما لمسته عند الكثير ممن كتب عنه في الحوار المتمدن بمناسبة رحيله، من تغييب لوجه آخر للطاهر وطار كمثقف وكروائي خلال العشرين سنة الأخيرة من حياته على الأقل.

للطاهر وطار، إذن، وجه آخر يختلف كثيرا، حد التناقض، عن الوجه الأول الذي عرفناه له من خلال مواقفه ورواياته ومجموعاته القصصية الأولى: «اللاز»، «الزلزال»، «العشق والموت في الزمن الحراشي» (اللاز الثانية)[1982م]، «عرس بغل»[1983م]، «الشهداء يعودون هذا الأسبوع»[1982م][٢]، «الحوات والقصر»[1974م]...

في أعماله الأخيرة: «تجربة في العشق»[1989م]، «الشمعة والدهاليز»[1995م]، «الولي الصالح يعود إلى مقامه»[1999م]... وفي تدخلاته عبر وسائل الإعلام، راح وطار شيئا فشيئا يتخلص من تركته اليسارية، حتى بلغ به الأمر حد التعبير عن الندم...».

ثمّ يتساءل قائلا: «فماذا حدث حتى يُحدِث وطار كل هذا الانقلاب في توجهاته وقناعاته وتحالفاته ؟» ويجيب قائلا:

«هذا ما نلمسه من خلال قراءتنا لروايته «الشمعة والدهاليز» المعبرة حقا عن الوجه الآخر لوطار والتي هي خطاب سياسي تبريري تمجيدي في صالح الحركة الإسلامية. ولقد لمست في معظم ما كتب حول الطاهر وطار في الحوار المتمدن تغييبا متعمدا أو عن حسن نية لهذا الوجه..».

وفي حوار بجريدة الشروق يطرح هذا السؤال عن قضيّة التحوّل عند الطاهر وطار:

«سؤال آخر رفعناه إلى الطاهر وطار مفاده أن



الطاهر وطار

كلاما تردد حول وطار كونه بعد الثمانينيات كسب الإسلاميين وخسر الشيوعيين. الإجابة من جهته لم تكن بالنفي ولا بالإيجاب، لكنه أكد بقوله: «بعض الشيوعيين فقط». وأردف قائلا: «لما التقيت في باريس بالصادق هجرس الأمين العام لحزب الطليعة الاشتراكية طرحت عليه رأيي بخصوص الموضوع ووافقني، وكان له نفس الرأي.. وطرحت الفكرة نفسها على الأمين العام للحزب الاشتراكي الأردني ووافقني هو الآخر.. لا يمكن في نظري تجاهل طرف آخر لمجرد أنه يحمل وجهة نظر تختلف عن وجهة نظرنا».

7 – في حوار أجراه معه الإعلامي «أحمد حرز الله»، سأله عن موضوع التحوُّل هذا، فأجابه بتلقائيّة تُظهر هذا التحوّل جليًّا، كان السؤال المطروح كالآتي:

جاءت الأزمة الجزائرية (أي سنوات التسعينيات)، فكتبتَ روايات قال عنها بعض النقاد إنها تحوُّلٌ جذري من الطاهر وطار الشيوعي إلى طاهر وطار الإسلامي، ومنها رواية «الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء» وروايات سابقة، ما تعليقك عن هذا الموضوع؟ هل تحولت من روائي شيوعي إلى روائي إسلامي؟

أجاب الطاهر وطّار:

«أنا أفضل آراء النقاد ولا أفضل آراء زملائي الروائيين، هي ثلاث روايات «الشمعة والدهليز»، «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»، و«الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء»[2005م]، هذه ثلاثة أعمال وهي قصيرة تعالج الظاهرة الإسلامية، «الشمعة والدهليز» قال: «الإسلام هو الحل»، وطرح يعني قضية أي إسلام، أي حركة أي اتجاه، ثم التصادم بين الشاعر وبين القيادات الإسلامية، في «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي» أطرحُ قضية «جماعة الهجرة والتكفير»، قال نهاجر المدن نهاجر هذه الأساليب نهاجر كذا نعود إلى ما كان عليه الأولون، «فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها»[2] إلخ..

وفي «الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء»، هناك إقرار بالهزيمة. وهذا ما حصل لكثير من المناطق من هزيمة الحركات الإسلامية المسلحة، ودعوة قال: «اللهم أصلح هذه الأمة بما تراه»، فكان يعني ضياع بترول وأنفاق البترول من الآبار وتحوله إلى ماء زلال يدعو الناس إلى العمل إلى نزع اللباس الأبيض هذا وارتداء اللباس الأزرق لباس العمل، والتشمير على الزنود والعمل في الأرض والبداية من جديد إلى آخره، ليس هناك يعني لا مهاجمة أو شتم للإسلام والإسلاميين، ولا أيضاً لا أقول تمجيد ولكن تبشير، هناك يعني نظرة ورؤية موضوعية تقول ما لهؤلاء الناس وما عليهم بحيادية وبموضوعية تامة، والناس هنا انساقوا للقذف وللشتائم وللرفض الأعمى لكل رأي مخالف».

« أنا أفضل آراء النقاد ولا أفضل آراء زملائي الروائيين، هي ثلاث روايات «الشمعة والدهليز»، «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»، و«الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء»، هذه ثلاثة أعمال وهي قصيرة تعالج الظاهرة الإسلامية »

• خلاصة:

ومن هنا يمكن أن نؤكد بشكل واضح أنَّ الطاهر وطار عاش تحوّلا كبيرا في المرحلة الثانية من حياته، التي بدأت بالتحوّلات الكبرى في العالم، بسقوط المعسكر الشرقي، وتبعها التحوُّل الكبير في الجزائر، لكنّ هذا التحوُّل لم تتضح ملامحه بشكل جلي للناظر من بعيد، وربما لأنَّ «الطاهر وطار» نفسه لم يعلن عنه بشكل صريح.[إهـ].

---

1) «الشهداء يعودون هذا الأسبوع» هي مسرحية وليس قصة ولا رواية.

2) من كلام الإمام مالك بن أنس –رحمه الله–.


مجلّة الخريدة
الفن ليس له قيود،
بل قواعد!

القصائد

القصائد

هذيان عاشق صوفي

بقلم عبد الوهاب بوشنَّة

إيماءةُ الغيدِ[1] تسبي عقل مَنْ وَهِمَا   وَخَمْرة الحُب تُفْشِي سِر مَن كَتَمَا

وبين سُكْرِهِمَا قَدْ صغت قَافِيَتِي   حتى أسلتُ بحور الشعر فِيَّ دِمَا

ومن تمائمِ لَوْعَاتِي فَنِيتُ أَسَّى   عَلَى فُؤَادٍ يظل الدَّهْرَ مُضْطَرِمَا

وَمَا سِوَى غَادَتِي الهَيْفَا أَذِنْتُ لَهَا   بِأَنْ تُغَبِّرَ فِي أَشْوَاقِيَ القَدَمَا

وَأَنْ تُنَصِّبَ تمثالا بِمَمْلَكَتِي   تيها، لترفع فِي سَاحَاتِهَا العَلَمَا

وما سوى حبرًا قد سال فِي وَرَقِي   وما سوى حبها في خافقي بَصَمَا

ولم يَكُنْ بين حُورِ الأَرْضِ سَيِّدَةٌ   كَمثلها لِخمار البدر قَدْ لَثَمَا

وَلَا تزال ببالي غير صُورَتِهَا   فيمَنْ طَوَاهَا خيال القلبِ أَوْ رَسَمَا

تُذَوِّبُ الصبَّ فِي أهرام جِيزَتِهَا[2]   وَتَبْتَنِي الوجدَ فِي أركانه هَرَمَا

ريحانة، وردة، فِي الروح مَسْكَنُهَا   وَالزيزفون بِهَا فِي مُهْجَتِي وَشَمَا

يَاقُوتَة لَوْ رَآهَا البَحْرُ بَاسِمَةً   لَأَنْكَرَ الدُّرَّ فِي جَنْبَيْهِ وَابْتَسَمَا

أَيْقُونَةٌ مِن صدى (فَيْرُوزَ) نغمتُهَا   تُعَلِّمُ الطَّيْرَ مِنْ نُوتَاتِهَا النَّغَمَا

زُمُرُّدٌ، وَسْطَ المَاسِ قَدِ امْتَزَجَتْ   به الجُمَانَةُ إِذْ كانت لهُ رَحِمَا

صَهْبَاءُ تقطر شهدا مِنْ بَنَفْسَجِهَا   تزيد شاربها فِي حُبِّهَا نَهَمَا

---

1) الغيد: جمع غادة. والغادة المرأة الناعمة اللينة.

2) الجيزة: محافظة بمصر، أين توجد الأهرامات .

(بَلْقِيسُ) لَوْ لمحت طيفا لِفِتْنَتِهَا   لَغَنَّتِ السُّكْرَ فِي تكوينها (قَسَمَا)

وَسَفَّهَتْ كُلَّ شَمْسٍ فِي عِبَادَتِهَا   وَأَنْكَرَتْ بَعْدَهَا أَنْ تَعْبُدَ الصَّنَمَا

عَزَّتْ فقلت لَهَا: ما بال أَخْيِلَتِي   إِنْ حُزْتِ فُنْدُقَهَا صَارَتْ بِهِ خَدَمَا

وَكُنْتِ مُمْطِرَةً بِالغُنْجِ إِذْ يَبِسَتْ   رُوحِي فَكُنْتِ لَهَا (بَيْنَ النساء سَمَا)

فِي سِحْرِ عينيكِ لُغْزٌ لَيْسَ يَفْهَمُهُ   إِلَّا الحبيب، وَلَوْلَا السحر مَا فَهِمَا

وَمَا رَمَيْتِ إِذَا عيناك قَدْ رَمَتَا   رَصَاصَةَ المَوْتِ، لَكِنَّ الفُؤَادَ رَمَى

تَأَجَّجَ الشوق فِي رُوحِي فَقُلْتُ لَهُ:   أَفْنِ العُيُونَ وَذَوِّبْ مقلتَيَّ عَمَى

وارجم شَقَائِيَ مِنْ سِجِّيلِ فَاتِنَةٍ   إِنْ كَانَ قَلْبِيَ فِي تِهْيَامِهَا رُجِمَا

لَا دَخْلَ لِي فِي صَدَى العذال إِنْ حَكَمُوا   أَكَانَ وصفكِ فوق الوصفِ أَوْ حُلُمَا

مَا عَادَ نَبْضِيَ ثجَّاجا لِغَيْرِكِ إِذْ   أفنيت فَوْقَ هواكِ الحبر وَالقَلَمَا!

قِبلة الأوجاع

صبيرة قسَّامة

لا تقرئي فنجان صبري يا أنا   ولْتَطردي من موطني كلَّ المِحَنْ

لا تسكَري بالدمع.. بالعبرات من   قلبٍ تراوغُهُ الكتابةُ والزَمَنْ

أنا يا أناي إذا شرحتُ مواجعي   كنتُ الضميرَ وفعلَهُ من بعد مَنْ!

صفَّدتُ شيطاني فأطلقَ غربتي   وسلوت عني فارتضى جرحي الشَجَنْ

أنا بالتبني بنتُ كلِّ قصائدي   لكنَّ أمي عاقرٌ منذُ الوَهَنْ

ضيَّعتُ فرضي في رثاء عروبتي   أتُرى ستدركني به بعض السُنَنْ؟

يا قبلةَ الأوجاعِ هُزِّي نخلتي   قد ضاع حلمي بين نومي والوَسَنْ[3]

أسقطتُ تفاحي على أرض الردى   فتمايلت أغصان قلبي في عَدَنْ

وخرجتُ من كل الجنان ومولدي   أمسى يصفف كل أرزاء الوَطَنْ

يمنايَ بيضاءٌ ستحمل زيفها   لَمَّا تعانق حبرها مثل الكَفَنْ

---

3) الوسن: هو النعاس.

وجَّهتُ بوصلةَ الضياعِ لسؤددي ... فوجدتُ في جمل العروبة ما فَتَنْ
سلَّمتُ تاريخي لنافخ كيرنا[4] ... قد ضاع مِسكي وارتدى قلبي الحَزَنْ
أبحرتُ في نهر التمني ما امتطى ... سفنا ومرساة كخضراء الدِمَنْ[5]
قد كنتَ سرِّي يا أناي وها أنا ... ذا اليوم أفرش ذي الدفاتر للعَلَنْ

باريسُ تنتحب!

رؤوف بن الجودي

صبري كجمرٍ، على الأحداثِ يَستعرُ ... والعينُ من فرطِ أحقادي لها شررُ
لا تحسبنَّ سُكوتي موقفًا وهنًا ... فالوهنُ ذلُّ الفتى قد عازهُ الظَفَرُ
ستُّونَ عامًا ولم تهدأ معاوِلُكم ... عن نبش أجداثٍ[6] تاريخٍ بهِ عِبَرُ
متى رثيتُ.. سأبكي موطني سَلَفًا ... عِراقُ عرضي، وفي سُوريَّةَ الضَرَرُ
لسنا «دواعشَ» كي تُرمى مساكِنُنا ... بألفِ سهمٍ ونابُ الموتِ ينتظِرُ
أمَّا اليهودُ فما أبقَوْا لنا لُغةً ... لا السيف لا الرمح، بالإيمان ننتصِرُ
أورِثتُ حقدًا على «باريسَ» من زمنٍ ... وصية الدهرِ والأعمار تُحتضَرُ
«باريسُ» تنزفُ؛ يا ويلي على صُدفٍ! ... بكتْ عليها لحاظٌ دمعُها حَجَرُ
من كان يزرعُ ألغامًا لأمَّتنا ... يأتيه يومٌ إذ الألغامُ تنفجرُ
ذاقتْ كؤوس هوانٍ من مرارتها ... ما كان أعدلها في وخزها الإبرُ
ما كنتُ ممَن يُبيدُ العُمْرَ في كلَفٍ[7] ... على مشاهدِ «فلمٍ» كلُّهُ غرَرُ

4) الكير: جلدٌ ينفخُ فيه الحداد.

5) خضراء الدمن: هو ما نبتَ من عشب (أو وَرْدٍ) في الأماكن الخبيثة. وهي كناية عن المرأة الجميلة التي نبتَتْ في منبَت سوء.

6) أجداث: جمع جَدَث وهو القبر.

7) الكَلَفُ: هو الحبُّ الشديد.

روح النشيد

عُمر خزّار

عد إلى روح النشيد … أيُّها الجيل الجديد
عد ولا تذهب بعيدا … إنَّه لحنُ الشهيد
كان عزفا من رصاصٍ … ثار من جوف الحديد
حين غناها تهاوى … كل جبار عنيد
عد ولا تخجل وردّد … قل معي: تحيا الجزائر

عد إلى الأوراس واسمع … ما ستروِيه الجبال
ها هنا نارٌ ونورٌ … ليس يحويه الخيال
ها هنا قد مات جيلٌ … في ميادين القتال
أنبتت من بعد صبرٍ … كل آيات الجمال
غنِّ للأوراس وافخر … قل: أجل، تحيا الجزائر

عد ولا تقبل هواناً … يُطمعُ الأعداء فينا
كن لمن عاداك ندّا … لا تكن ندّا هجينا
إن يقولوا: قد نسيتم … قل: وربي ما نسينا
كيف ننسى كأس ذل … قد شربناها سنينا
أنشد الأبيات واصدح … بي: أنا تحيا الجزائر

عد إلى روح النشيد … واصنع الفجر الأكيد
سوف يبقى ما عزفنا … ألف عام أو يزيد
كان هذا صوت حرٍّ … جاء من ماضٍ بعيد
يا شهيد الحق أنشد … ها هنا جيلٌ يُعيد

من غير إعجاب ولا تعليق

مصعب بلهادف

من غَير إعجابٍ ولا تَعليقِ
لتعد أنفاسي وكُلّ مَشاوِري
تهتم: مَنْ تابَعتُ؟ ماذَا شَدَّنِي؟
ولِمَنْ أشرتُ؟ بأيِّ مَوضوعٍ؟ ومَا
تَشتَمُّ كُلَّ قَصائِدي كَفَراشَةٍ
وتُفتش الكلمات تَبحَثُ بَينَها
لتُحلِّلَ الأشواقَ، تفهَمُ سِرَّها
مَنْ قَدْ قَصدتُ بِقولِ «أنتِ حَبيبتِي»؟
وتَعيشُ بَينَ ظُنونِها وجُنونِها
وتَروحُ كالأطفَالِ تَمسَحُ خَطوَها
وتَظُنُّ أني لستُ أعلَمُ أنَّها

تَأتي لتبدأ حملة التَحقِيقِ
وتَغوصُ كَيْ تَجتث كل عَميقِ
مَن قَد أضَفتُ مؤخراً كَصَدِيقِ؟
قد قلت؟ أو شَاركتُ مِنْ تَطبِيقِ؟
تَمتَصُ مِثلَ النَحلِ كل رَحِيقِي
عَنْ أي: خَيطٍ، شَعرَةٍ، أو رِيقِ
مِن أينَ جَاءَتْ؟ عَبرَ أيِّ طَرِيقِ؟
ماذا قَصدتُ بِصورَةِ التَعلِيقِ؟
أَطوارَ وَهْمٍ مُسرِفٍ... في الضِيقِ
عند الخُروجِ... تَشُدُّ كُلَّ شَهِيقِ
كانَت هُنا.. «مِنْ عِطرِها المَرمُوقِ»

جلالة الجندي

أسامة رزايقية

ألقى مخاوفهُ وشغّل مدفعه
نائيٌ هديّة أختهِ لزواجه
من مئذنات العزّ تشرقُ دعوةٌ
في التلّ أعلى قمّة ستهابه

يدنو إليه مطّولا كي يُسمعهْ
وقلادة من أمّه غنّت معهْ
قوموا فأبواب الجهاد مشرّعهْ
والسفح أعرض عن خطاه فركّعهْ

ورصاصةُ كالشّيخِ يُقرأ أمردًا[8] حتىّ تعوّذ من سواه وشيّعهْ
سربٌ من الأقدار طيّب ظنّه ونسى احتمال النّصر ثمّ توقّعهْ
ماذا يقول؟ يقول: أنف شامخٌ ويرفرف العلمُ الشريف ليرفعهْ
سيسير كلّ طريقه متدبّرا لا يكسر الفخّار حتى يجمعهْ
من طينه يبني جزائرَه التي وإذا تهاوى البرجُ عاد ليصنعهْ
لو كنت تعلم كيف يبرأ جرحه لا تسأل الجرّاح واسأل مبضعهْ
قُل ضابطٌ ومجندٌ في حلفه نور الملائك والصفوف مشعشعةْ[9]
سيموت في إسلامه ويكنّه لو أرغموه على الهلال لينزعهْ
لا خائفٌ من موته ومبشّرٌ تتلى الشهادة والرصاصة مسرعةْ
سبعون يشفع فيهمُ بيمينهِ وإذا القرارُ أتى يحرّك أصبعهْ
بين انبعاث وانبعاث آخرِ تقف الحياة فخورة لتودّعهْ

مناجاة عاشقينِ في محراب الشعر

رمضان بونكانو

هبّتْ عَلَيْـــكِ نسائمُ الزُّهـــــادِ يا مَن قضيتِ الليـــل في الأورادِ[10]
يا من قرأتِ الذاريـــاتِ ويوســـفاً وشهقتِ عند الذكر والإنشــــادِ
قلبي يراوحُ في هواكِ مكانهُ يشكو من الإعياءِ والإجهـــادِ
ما كان ضرَّكِ لو مننتِ بنظرةٍ من مقلتيكِ ليستريـــحَ فـؤادِي
ماذا عَلَيْكِ إذا غسلتِ دفاتري بمياهِ زمزمَ واحتسيـــتِ مدادِي
تُشفى جراحُ الشوقِ من ذرَّاتهِ ويسيلُ نهرُ العاشقيـــنَ بوادِي
لمّا ذبحْتِ على القبورِ جنوننا نبتتْ عَلَيْهِ زنابـــقُ الحُسّادِ

8) الأمرد: كلُّ مَن نبتَ شاربه ولم تطلع لحيتُهُ.

9) الشعشعة: هي إنتشار الضوء.

10) الأوراد: جمع وِرْد وهو الذكر التي يقرأُهُ المسلم لحاجة ما (كأوراد اليوم والليلة).

أطفأتِ فانوسَ الغرامِ بحيِّنا ... وصلبْتِ آمالي على الأوتادِ
لا الشوقُ يعرفُ كيف ينقذُ نَفْسَهُ ... من قبضةِ السّجّانِ والجلّادِ
لا الحُبُّ من شَرَكِ التآمرِ قد نجا ... أبداً، ولا قمرُ المودَّةِ بادِ
صلّتْ بحورُ الشِّعرِ فوق قصائدي ... يا ضيعةَ الأشعارِ والسَّجّادِ
غنَّتْكِ بالألحانِ ألفُ حمامةٍ ... وترنّمتْ بروائعِ الإنشادِ
عزفتْ سنافينَ[11] المحبّةِ قطعةً ... بأناملِ النایاتِ والأعوادِ
قد كنتِ في الإغواءِ قطعةَ سُكّرٍ ... ذابتْ بكأسِ العشقِ للأحفادِ
كمْ قد شربنا من دِنانٍ[12] رحيقها ... نخبَ المحبةِ عند بطنِ الوادِي
كم قد تجرّعْنا كؤوسَ شقائنا ... سُمّاً زعافاً وسْطَ ذاكَ النادِي
حتى انجلى ليلُ الهوى متكشِّفاً ... عمّا اقترفنا بعدَ طُولِ سُهادِ
مدُنُ المحبّةِ بعدَ موتكِ دُمِّرتْ ... وتلبّدَتْ بسحائبِ الأحقادِ
أصبحتُ كالغجريِّ أحملني على ... كتفي، وأنشُدُ في عيونكِ زادِي
سافرتُ في جُنحِ الظلامِ وفي دمي ... أمي.. أبي.. تجري مع الأولادِ
أدركتُ قبل الفجرِ آخرَ رحلةٍ ... لسفينةِ الآباءِ والأجدادِ
أحتاجُ حِرزاً من غموضكِ عارفاً ... بمكائدِ الأنذالِ والأوغادِ
لا تتركي التاريخَ يأخذني إلى ... عصرِ الهزائمِ من عهودِ بلادِي
كل الخرائطِ بعدَ عهدِكِ مُزّقتْ ... وتفتّتْ كتفتُّتِ الأكبادِ
شوقي.. غرامي.. في ديارِكِ أصبحا ... مثل العبيدِ بحضرةِ الأسيادِ
عيناكِ أبحرتا بعيداً عندما ... قَتَلَ الزمانُ عزائمَ العُبّادِ
شفتاكِ بعدكِ في المشاجِبِ[13] عُلِّقتْ ... في قصرِ زينبَ قُرْبَ كُوخِ سُعادِ
والخوختانِ من التوتُّرِ باحتا ... بالسِّرِّ قهراً بعدَ طُولِ عِنادِ
ماتَتْ طُيورُ الشوقِ في عُشِّ الهوى ... وتعرَّضَ البستانُ للإفسادِ
وأنا حزمتُ على البعيرِ حقائبي ... ومضيتُ أشكو الحالَ للتُّوبَادِ[14]

---

11) سنافين: جمع سنفونية، وهي القطعة الموسيقية.

12) دِنان: جمعُ دِن، وهو الوعاء الضخم للخمر ونحوه.

13) المشاجب: جمعُ مِشجَب، وهو ما تُعلَّقُ عليه الثياب.

14) التوباد: جبل معروف بجزيرة العرب (جنوب غرب مدينة الرياض).

رحل ولم يعد

بوعزّة أنيم

لم يبق شيء يغذي الشوق في جُملي ... إلا بقية دمع فاض في مقلِي

لم يبق شيء فذي الأيام قد رحلت ... بعهده وحياة الحب والجذلِ[15]

لم يبق إلا مرير العيش أكتبه ... في وحدتي بمداد الحزن والمللِ

لا القلب قلبي ولا الأحزان راحلة ... وهذه الحال لا تبقي على رجلِ

أنسى عزائي ولا أنسى تذكّرَه ... وكيف أنسى أنيس الأنس والبذلِ؟

بل كيف أنسى حبيبا بات يغمرني ... بدفئهِ، بحنانِ الصدر والقبلِ

إن كنتُ أنسى فلم أنسَ ابتسامته ... لم أنسَ فيه لذيذ الجد والهزلِ

لكَم حلمت بأن يبقى معي أبدا ... يزهو بقربيَ في حليٍّ ومرتحلِي

نلهو معا ونعيد نشوَ لذتنا ... ونغرس الفرحة الغنّاء كالأسلِ[16]

لكنه كظلال الحلم منتقلٌ ... وما سمعت بظل غير منتقلِ

لهفي عليه متى ألقاه ثانية ... أم الليالي قضت بالبين في الأزلِ

فلا لقاء وصار الوصل في غدنا ... عنقاء مغربَ أو ضربا من الدجلِ[17]

كأن عيني إذا أطيافه خطرت ... سيل يفيض على الخدين من جبلِ

إني لأذكره؛ بل حين أذكره ... يتيه قلبيَ بين اليأس والأملِ

لا شيء أتعس من قربٍ ويعقبه ... بعدٌ؛ وإنه بُعد الأرض عن زحلِ[18]

---

15) الجذَل: الفرحان.

16) الأسل: نبات ذو أغصان كثيرة، تصنعُ منه الحُصُر والحبال.

17) الدَجل: الكَذِب

18) زحل: كوكب

القصة والرواية

حُبٌّ حتّى الجنون

أقصوصة

هدى الطرابلسي

جلس على حافة سريرها بالمستشفى، وهي تمسك بيده كأنها خائفة أن يهرب منها، تضغط على أصابعه من حين لآخر من شدة الألم والخوف، فقد كانت تشتكي من أوجاع أليمة بالرئتين، وأخبره الطبيب بأن العلاج لم يعد نافعاً معها، وأن أيامها معدودة، ربما اليوم أو ربما غداً.. الأمر كله بيدِ الله.. اِغرورقت عيناه بالدموع وترجّى الطبيب أن يحاول مرة أخرى، ويبحث لها عن علاج لحالتها حتى لو كان هذا العلاج خارج حدود الوطن.. سيفعل لأجلها المستحيل، المهم أن تعيش.. أخبره الطبيب بأنه لا داعي لكلِّ ذلك، فحالتها عويصة وميؤوسٌ منها، لأنَّ بدنها لم يعد يتحمَّل أي علاجٍ كيميائي، لذا طلبَ منه أن يسأل الله التخفيفَ من آلامها لكي ترتاح.

وهكذا كان يفعلُ كلَّ يوم.. يدعو لها بالشفاء ويقرأ لأجلها سورًا منَ القرآن.. كان يحبُّها الى حدِّ الدَّله.. كانت هي أول حبٍّ طرق بوابةَ قلبه، وهي بدورِها تحملته بكلِّ عيوبه؛ حتى عندما أخبرهم الطبيب بأنه مُصابٌ بالعُقم، لم تقرِّر أن تتركه، بل قالت له بالحرف الواحد: «أنا أحبُّكَ كما أنت».

فراحَ يراجِعها في قرارها الشُجاع: «لا أريد أن أحرمك من طعم الأمومة وكلمة ماما»..

فأجابته بكلِّ ثقة: «تَكفيني أنت.. فأنت



الحبيب والزوجُ والابن!»، فازداد بهذا الموقف تعلُّقًا بها..

أمَّا الآن –وهي على فراش الموت– فهو يتلوى قهرا لأجلها، لا يستطيع فعل شيءٍ سوى مواساتِها بالتحدُّثِ عن ذكرياتها الجميلة التي عاشاها معا..

كانت تشعر بأنها تعيشُ ساعاتِها الأخيرة، ولكنَّها لم ترد أن تعكر صفو تلك اللحظاتِ المعدودةِ بالبكاء والنحيب.. حتى الوجع أصبحت تتحملُ وقعَ سياطه من أجله، لا تريدُه أن يعلمَ بذلك.. يشقّ عليها أن تراه حزيناً كئيبا؛ إنَّها تلاحظُ عبراتِه المتهاوية من مقلتيه في العديد من المرات التي يحاول فيها إبعاد وجهه إلى الناحيةِ الأخرى.

تحدَّثا طويلاً ذلك اليوم، أخبرها بأنَّ لديهِ اجتماعاً هاماً لابدَّ أن يحضره، وبأنه لن يتأخر كثيرا.. ترجَّته أن يبقى، لأنَّها تخشى البقاء وحيدةً يطوِّقُها المللُ من كلِّ جانبٍ، في غرفة يخنقُها الصمت.. أصرَّ أن يذهب ووعدها بأنَّه سيعودُ في خفقةٍ من البرق.. لمَّا بلغ موقف السيارة، لم يجد المفتاح في جيبه، وتذكَّرَ أنَّه تركه في غرفة المستشفى، فقفل مسرعا لاستعادته.. ولمَّا اِقترب، وجدَ الطبيب المعالج والممرضة يشرعان في الخروج والتجهم يكسو وجهيهما.. ارتعدت فرائسه، شعر على الفور بأنَّ مكروهًا قد حصل، بل فهم أنَّها قد ما.. تت!

مضى الطبيب دون أن ينبس بكلمة، وتبعته الممرضة.. دخل هو مهرولا إلى الغرفة، ليجدها مسجَّاةً بغطاء أبيض.. أزاح الغطاء ببطءٍ شديدٍ، والأملُ الخافتُ ما يزال يشعُّ في قلبه.. لقد قضت نحبها بالفعل، وأسلمت روحها وهي باسمة الثغر.. لقد كانت آخر رسالة قبل أن تغادر محطة الحياة.. بكى كطفل صغير حتى سُمع نشيجُه، ليجدَ الطبيبَ وراءَه يربتُ على كتفِه، وراح يخبرهُ: لقد كانت طيلة وقت مغادرتِكَ، تردد اسمَكَ باستمرار.. وبقيت كذلك حتى لفظت آخر أنفاسها..

فردَّ عليه بنفس حسيرة: «يا ليتني لم أتركها.. يا ليتني سمعت كلامها وبقيت إلى جانبها...».

لقد ظلَّ يذكُرُها حتى بعد وفاتها بسنوات، ويزور قبرها باستمرار، يُحدِّثُها كما لو كانت حيَّة ترزق، يسردُ لها تفاصيلَ يومِهِ، وعندما ينتهي يودِّعها ويعودُ إلى المنزل، ليستأنِس بصورها المعلقة على كل الجُدران.. لقد وصل به الأمر أن اِتهمه أصدقاؤه بالجنون، ولم يطل به الأمر حتَّى تحقَّقت نبوءتهم فأصبح مجنوناً بالفعل.. حملوه إلى مصحة الأمراض العقلية، يجلسُ في غرفة لوحدِه، يحتضنُ بشدَّةٍ إطارَ صورتها، يعانقها بقوة ليل نهار.. وكلما حاول الممرضونَ أن يأخذوا منه الصورة، صرخ في وجوههم، وقد يصل به الأمر أن يهاجمهم بكلِّ شراسة.. لقد غدت حياته معلقة بصورة وذكريات.[إهـ].

ابن الإنسانية

قصة (فصل 2/1) مصطفى بوالطين

الموتى لا يرجعون بعد الموت، لكن أبي عادَ بعد أن قتلتُه بيدِي، غرزتُ الخِنجر في قلبه فخرّ متثاقلا أمام قدميّ شاخص العينين.. لمَّا عُدت من رحلة علاجي، وجدته في البيت كأن شيئا لم يحدث، وجودُه هو الشيء الوحيد المعهود منذ عودتي إلى الوطن وسط النظرات المرتبكة التي يُلقيها سكان الحي على الخارج لِتوه من مصحة «سانتا روزا» النفسية بكاليفورنيا الأميركية،

للعلاج من موجة اكتئاب حادٍ ألّمت به بعد الغياب المفاجئ لأبيه.. تتساقط شظايا كلامهم على أذنيّ



عن هجرته إلى فرنسا طوال أعوام، كنت متيقنا فيها أنه لم يعد جزءا من هذا العالم، يتخافتون فيما بينهم عن شقراء فرنسية لعبتْ برأسه تحت بريق عاصمة النور لتُلقِي به على قارعة أزقتها النظيفة بعد أن سلبَته كل ما يملك.

في المصحة أكثر شيء تعلمته، هو ألا أكترث لكلام الآخرين، وأن أثق فيما تراه عيناي ويمليه عليّ رأسي.. أفتح أي كتاب تقعُ عليه يدي، لقد احتلَت القراءة جزءا كبيرًا من يومياتي حيثُ كنت أدخلُ مكتبة المصحة الضخمة ولا أخرجُ منها إلا بعد ساعات، تشدّني سِير العُظماء وملاحم القدماء، ألتهمها بشغف فقدتُه عند عودتي.. لا أستطيع أن أركزَ على عنوان الكتاب الذي حملته، أحاول القراءة لكن المَشاهدَ تتراقص أمامي بلا هوادة، صوت أبي المخمور في أواخر كل ليلة ينهال بشتائمه على أمي التي تنتظر أن تخور قِواه لتَتلقفَه وتجرّه إلى غرفته راضخةً لهوان سِبابِه وماسحةً بصاقه عن وجهها الطاهر.. الكلماتُ لا وجود لها، كل ما في الكتاب وجه أبي المشتعل غضبًا في ليالي

إفراطه في الشرب.. إفراط جعل أمّي تدفعُ فاتورته من لحمها الطري المرصّع بالكدمات.

في الليلة التي قتلتُه فيها، كان كثورٍ هائجٍ يتخبّط في كل اتجاه، يرمي بها ويلكزُها في كل نواحي جسدها، أمسكتُ قبضَته فدفعني إلى الحائط، أسرعتُ إلى المطبخ لأحمِلَ سكينا أُهددُه بها، لكنني عند عودتي وجدتُ أمي طريحة الأرض بلا حراك.. لم أعِ ما فعلتُه إلا ووالداي على الأرض جنبا إلى جنب.. هو غريقٌ في دمائِه، وهيَ غائبة عن الوعي من شدة الصدمة..

لم أعلم كيف تمت الإجراءات، غيرَ أنّني كنتُ سعيدًا لكوني سأقضي ثلاثة أشهر في الولايات المتحدة الأميركية عدتُ منها لأرى الوطنَ، كأنّني أراه للمرة الأولى مسلوبَ الألوان، متهالكًا، يئِن في صمت ولا يسأل عن شيء غير قوتِ يومه. تخرجُني أمي من سجن ذاكرتي بمطالبتي بترك ما في يدي ومرافقتِها إلى الطبيب لإجراء المتابعة الدورية.. أسألها ف
ا لطر يق :
كيف



الأمير عبد القادر

استطاعَت أن تغفرَ له خيانتَه وهجرَه لها كلّ هذه السنين؟ فتُجيبني ببراءة علَت مُحيَّاهَا، أنَّ الإنسان عليه أن يُسامح حتى يستمرَّ في الحياة، وأنها تُسامح لنفسِها لا لوجه أحد..

نُكمِل طريقنا دون أن أستوعب ما تقوله، ندخُل على الطبيب فلا يبدي أي تجاوب.. فورَ وصولنا يَجلِس في مواجهتي، يرمقُني بنظراتٍ باردة لا تُوحي بشيء، فعدمُ مبالاته تستفزّني، ما زال يَحسبُني مريضًا، وأن رحلتي قد عقّدت من وضعيتي.. كنتُ أخبرتُه كيف أقنعتُ الأطبّاء -هناك- بسلامة أفكاري والدورِ الحاسمِ الذي ينتظره العالم مني.. يَنزلقُ الطبيب في كرسيّه عندما أبدأ في إخبارِه كيف أن «حسيبة بن بوعلي» و«العربي بن مهيدي» اِنزَويَا بي يبلغانني المبادئ الحقيقية للثورة، والتي يجب أن أحفظَها عن ظهر قلب وأعملَ على تلقينها لكلِّ أفراد الشعب، لتكون لَهُم منهاجًا يرفعونَ به البلاد إلى المراتب العليا.. لم يكن كلامُهم شعاراتٍ فارغة تُردّد في المناسبات الوطنية وعند اقتراب آجال الانتخابات.. «بن مهيدي» يتحدثُ في عجلةٍ خشيةَ أن يحُول الجلّاد بينَه وبينَ إيصالِه الرسالة إلى الأجيال القادمة، ولا يتوقف عن النُصح لهم، رغم سحبِ الجلادين له وكمِّهم لِفَمه، تَبكِيه «حسيبة» بدموعٍ غزيرة تنحدِر على خدِّها النضِر، أُواسيها فتُجيب بكلماتٍ مخنوقة أنها تخشى أن يَذهَب دمُه سُدى بين المزايدات السياسية والنعرات القبلية، إنّها مُتيقنة أنني سأكونُ الحارسَ الأمينَ لنَار المِشعل المتّقدة، لذلك يجب أن أنجو من الانفجار القادم.. تَفتح البابَ الخلفي لأَخرُج وتُغلقَه خلفِي مباشرة..

أجد «الأمير عبد القادر» ينتظرُني ممتطيًا جوادَه الأبيضَ الأصيل، يجعلني رديفَه، وينطلِق بنا قبل أن ينفجر البيت خلفنا، ألتفِت لأرى ما حلَّ بحسيبة، فيُطمئِنني بأنها ماتت لِيحيَى وطنٌ بعدها، وأن روحها لم تُقبَض، لكنها تناثرت في البرايا تبعث فيهم روح الحرية التي كادت تنعى نفسها.. يُسرِع بنا الجواد فأُطوّق الأميرَ بذراعيّ وأُسند رأسي على ظهرِه كطفلٍ غرير.. يَصلُني منه صوتُه الواثق «إننا سلالة الأحرارِ، لن يَهنَأ لنا بالٌ حتى تغمرنا الحرية نقيّةً لا شائبةَ فيها».. لقد أخبرني أنه يعوّل عليّ للتخطيط لهذه المهمَّة المصيرية، فلم أملك إلَا أن أردَّ عليه «إنني لا أملك الخبرةَ الكافية»، فيُحذِرني من الوهنِ ويذكِّرني «أن الطريق طويلة، وفيها من التجارب ما سيَزيدني فِطنة وتمييزًا للأعداء الحقيقيين». .[يُتبع].

قُضبَانُ القَلب

أقصوصة

دليلة مكسح

كنتُ أراه هناك قابعا في الزاوية بعينيه الصغيرتين، حِدَّتُهُمَا غير مألوفة عند طفل لم يتجاوز الثانية عشرة، جيء به صباحا من أحد الشوارع الثائرة.. كان وجهه مزرقا ويداه منتفختين ممّا تلقّاه من تعنيف، وكانت ملابسه ممزّقة.. ورغم الارتعاش البادي على جسدِه، فإن حدقتيه كانتا تخفيان أمرا عظيما لم أستطع فهمه.. نسيتُ في تلك اللحظة آلام تعذيبي وأنا أراه يصرُّ على مغالبة تأوهاته، اِقتربتُ منه لأواسِيَه، كي أجعله يتجاوز صدمة الزج به في زنزانة، لأتفاجأ من ردِّهِ عليَّ بإصرار:

– «لستُ طفلا فلماذا تحدثني مثل الصغار؟».



اندهشتُ من كلامه، أحسستُ أن الآتي أعظم، كيف لطفل أن يتغلب على براءته الطرية؟ كيف له أن يغالب إحساس الخوف في داخله؟ كنت أظنه مثل أي صغير حين يحسُّ بالخطر، يتمنى حضنا دافئا يغوص فيه، لكن توقعاتي كانت خاطئة، نسيتُ في تلك اللحظة أنني وراء القضبان، بدا لي ذلك الطفل، أو ذلك الرجل –لأنَّهُ يستحق نعت الرجل– نافذةً أعبُّ منها كثيرا من الضوء والهواء، ابتسمتُ فرَدَّ عليَّ بابتسامة جادَّةٍ، قلتُ له بتوجسٍ: «هل يعجبك المكان؟»..

نظر إلي باندهاش وقال: «ليس فيه ما يُضجر»..

أضفتُ: «والقضبان ألا ترعبك؟»، فقال: «لقلبي قضبانه الخاصة»![إهـ].

ليلـــةُ القِـــطّ

أقصوصـــة

مختار سعيدي

كان الليل قد خيَّمَ على الديار، إذ أرخت السماء ستارها، وسادَ ذلك السواد الجميل، الذي يغزو عُيون العربية النجلاء العائدة من عمق البادية؛ كأنها ليلة لا كالليالي الأخرى... يُراودها الهَسهاس، إنها تباهي بزرقتها الليلية القاتمة ناصية البياض، وتضفي مسحة الفراغ، تتحدى بسكونها فزع النهار المرتقب، تفرِّغ الأشياء من محتوياتها، تضعُ مكان القهقهة بسمة الحَذَر، تصنعُ إرهاصاتها من متاهات السكوت المهوّل.. إنها نزهة الترقب والاشتياق، إنه السفر في دهاليز الذات القلقة حيث تكثر التساؤلات وتستيقظ أرواحُ الأَرَق...

هكذا بدأتْ في حدَّةٍ وتوتُّرٍ أكثر، تولدُ الليالي وتُوأدُ في الخفاء، لا تفضحُ اغتيالاتها إلا أمواجُ النهارِ الكالحِ.. «ذبحوا!.. قتلوا!.. أخذوا!.. دمروا..!»، يحملها أثير الأشواك وتَنقُلُها وَخَزَاتُ القلم.

دخل كعادته إلى بيتهم قُبيل الغروب متعباً، يدفعه القنوط.. لقد أقعدته البطالة المفروضة على هذه القرية التي أضحت كالجسد المريض مرهقة الأطراف؛ نسجَ العنكبوت خيمته في الورشات، وخمدت النار المقدسة، وأطرقتِ المطرقة، وانطفأ جهاز التلحيم الذي كان يجمع المفككات، سكتت محركات الجرارات، والحاصدات، والشاحنات التي كانت تنقل الخَيْرَات، واكتسحت المدرعاتُ الميدانَ، واستوطن صوت الرصاص، تردِّدُ صداه الشوارع والفضاءات.. «لا تخرج بالليل!!.. تحرَّ النهار!!.. احذر!!..»، وفرَضَ حَرْفُ اللاءِ أعمدتَه وسياجه على امتداد المكان والزمان..

دخل إلى القاعة الفسيحة المزينة الصدر

بالزرابي الصحراوية والأرائك الإفرنجية، إنها تتآكل في صمتٍ.. صورة الشيخ معلقة على الجدار، فوقها بندقيته، عين الصقر فوق شنبٍ ثائرٍ.. نظر إليه: «هكذا انتهيت..!»، قالها في نفسه، «حتى في الصورة لا تنكسر..!».

كانت العشيرة كلها تدين له بالولاء، بيده الحل والعقد، هذه العشيرة التي جمعت صنفي المواطنة: القاطنين في البادية، أهل بذل وبذر وزرع، أهل الترويض وركوب الخيل والفنتازيا، أهل الكرم والجود والفروسية؛ والقاطنين في الشمال، أهل المدنية والإدارة والأبهة والسلطة والنفوذ!

جناحُ هذا البيت مجهز بكل ما يحتاج إليه الضيف مهما كانت منزلته، ومهما كانت الطبقة التي ينتمي إليها، والضيف عندهم مقدَّسٌ جدًّا: له دورة مياه خاصة، فيها كلُّ لوازمِ النظافة والطهارة والزينة، من صابون وعطر رفيع ووَرَقٍ.. لا تزال كما هي كلها: شفرات للحلاقة، وقطعةٌ «الشبِّ»، لأنه نادراً ما كان يحلق ذقنه دون أن يخدشه، كان رحمه الله يقول: «اللي فاتك بالزين فُوته بالحسانة»(1). ما كان يقضيه في تهذيب شواربه يتجاوز بكثير مدة حمَّامِه، يلقبونه بـ«الموسطاش»، أحفاده يسمونه «العشرة وعشرة»، قال أحدهم إنها إشارة إلى الساعة، وقال الآخر: عشرة رجال وعشر نساء، وقال أحدهم: عشر سنين وعُشْر، وقالوا غير ذلك..!!

كان صوت التلفاز مدويا يضاهي صراخ الأطفال الصغار وقهقهتهم، ها هُم يهرولون خلف ذلك القِطِّ المرح «عنتور».. فالنظافة والرشاقة والمهارة تستهوي الجميع لمداعبته.. يَختبئ، يُهاجم، يُطارد، يَقفز.. كان «عنتور» نَشِطًا ذكيًا لدرجةٍ تسترعي الدهشة والإعجاب، يأكل كل ما يجده، حتى الحلوى والشكولاطة.. يَلعقُ



كؤوس الشاي، يتقاسم مع الأطفال أكلهم ونومهم ولعبهم.. في وسط هذا الضجيج، وفوضى الأشياء بداخله، إستلقى هذا القطُّ على الفراش، يتأمل زخرفة السقف الجميلة، كأنها في عينيه منمنمات توهمُ البصر وتشغلُ البصيرة، تحفُّ الثريا المبتهجة؛ فالنوافذ مغلقة بإحكام..

كان الجو في الداخل ثقيلاً، والعياء بلغ حده، لم يكن من طبعه أن ينهرَ الأطفال، بل كان يُمارسُ معهم ذلك التصعلك الصبياني الذي يذكره بأيَّامِ

طفولته.. رغم شساعة البيت واتساع أركانه ومرافقه، بدا له كأنَّه قَفَصٌ ضيِّقٌ، استلقى متمددا على ظهره تداعبُ أجفانَه السِنةُ بعد الأخرى، والجو الذي يحيط به يبتعد شيئًا فشيئًا، ثم يعود ليختفي حيث لا يدري، تنتابه الغفوة بعدَ الأخرى؛ حتى لا يسمع إلا همهماتٍ وخشخشةَ أصواتٍ يبتلعها المجهول رويدًا رويدًا، ويسلب معها مدارك الجسم.. وفجأة بدأت أحداث أخرى في عالم آخر تجذبه إلى غربة أخرى، أحس بضيق في صدره، تبعهُ خفقانٌ سريعٌ يتسابق نحو نقطة في الفراغ كانت -وهي الآن في اتساع- تشكل دائرة مُفْرَغة يتيه فيها العقل مقيدًا ومذعورًا، تطارده شِبَاكٌ مُعقَّدةُ الحبكِ، وتجري وراءَهُ ضرباتٌ كأنها قطراتٌ باردةٌ تسقط فوق دماغه، وتُقرعُ طبولُ الخطرِ في أذنيه، أصوات عائدة من بعيد، استغاثات، نداءات، صيحات.. يحاول أن يستغيث فلا يقدر!.. صراخ يُمزِّق ضجيج الأشياء..

والأشلاء التي تتشكل -مبهمةً- تجذبه من كل جهة، شيء ما يشده من قدمه، يحاول جرَّه نحو الأسفل، أفقدته هذه الهواجس السيطرة على مفعول الحياة الذي كان يتسرب إليه من فجوات، يتلمَّسُهُ بلهفٍ، تشنجت أعصابه لدرجةٍ تُنذرُ بدنوِّ الِانفجار، كأنَّها أوتارٌ اشتدت لعزف مقطوعة في قمةِ التوتُّر، ذلك الشيء العالق بسرواله، إنه ما يزال يشدُّه، كأنه يد خرجت من قبرٍ تجذبه بكل قوَّةٍ، البشاعةُ تلفُّهُ لفًّا، ثِقَلٌ ما يُحاول أن يسقط فوقه.. الآن آه، سقط فوقه، إنَّهُ يغشاهُ، يخنقه، يستغيثُ مرةً أخرى، أراد أن يبكي، لكن دون جدوى.. ما يزال الضياع والانهيار يمزقان كل قبسٍ للصورة الجميلة التي يختلسها نظره من حين لآخر.. في ذلك الأفق البعيد، دقات تشعرهُ بأنَّ صقرا ينقر على رأسه، وأيُّ شيءٍ هذا الذي يشدُّه من سِرواله لِيُلقي بِهِ حيث لا يدري..

وفجأة خرجت الصرخة: «لا لا لا!..» كأنها صدى انفجار، فاستوى صاحبنا قاعِدًا.. وجد قِطَّهُ يُلاعب رِجله، ودقَّات المُنبِّه تترنَّم، والدِّيك الفصيح -كعادته- يصيح لإعلان فَجرِ يوم سيُولد... [إهـ].

---

1) مثلٌ عاميٌّ (خاص بمنطقة الغرب الجزائري)، معناه: «من سبقك بالجمال، إسبقه بالحلاقة».

حدث هذا الشهر

حدث هذا الشهر

18 ديسمبر

اليوم العالمي للغة العربية

يُعدّه/ عبد المومن تلايلف

يحتفل في 18 من شهر ديسمبر من كل سنةٍ باليوم العالمي للغة العربية، حيث يمثِّل هذا التاريخ، اليوم الذي أصدرت فَيه الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارًا يحمل الرقم (3190)، تُقرّ بموجبه إدخال اللغة العربية ضَمن اللغات الرسمية ولغات العمل في هيئة الأمم المتحدة.

وقد جاء اعتماد «اللغة العربية» في الأمم المتحدة بعد ضغوطات وجهود بُذِلت منذ منتصف القرن الماضي، حيث تمَّ في 4 ديسمبر 1954 الترجمة التحريرية للنصوص والقرارات الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة إلى اللغة العربية، تلاها قرارُ منظمة اليونيسكو استخدام العربية في المؤتمرات وترجمة الوثائق والمنشورات الأساسية إليها. وقد اِعتُمدت الترجمة الفورية للغة العربية عام 1968، ومع استمرار الضغط الدبلوماسي العربي، تمَّ في سبتمبر 1973 اعتماد اللغة العربية كلغة شفوية في الأمم المتحدة، وبعد ازدياد الضغط من أجل اِعتماد اللغة العربية في كل نشاطات الأمم المتحدة، تم إدراجها في جدول أعمال الجمعية العامة لسنة 1974 بناء على طلب تقدمت به كلٌّ من «الجزائر، العراق، ليبيا، الكويت، المملكة العربية السعودية، اليمن، تونس، ومصر»، لتُصبحَ اللغةُ العربيةُ إحدى ستِ لُغاتٍ معتمدة في الأمم المتحدة.



وفي أكتوبر 2012، وأثناء انعقاد الدورة المئة والتسعين للمجلس التنفيذي لليونيسكو، تقرر تكريس يوم 18 ديسمبر يوما عالميا للغة العربية.

وتعتبر «اللغة العربية» إحدى أقدم اللغات عبر التاريخ، وهي تنتمي للغات السامية والمتفرعة عنها، ويتكلم بها اليوم ما يربو عن 422 مليونا، يتمركزون في «شبه الجزيرة العربية» و«شمال إفريقيا» و«الشام» وبعض الأقليات في «تشاد والسنغال وإريتريا» وأجزاء من «تركيا» و«الصومال»، وهي اللغة الرسمية في «جمهورية جزر القمر المتحدة» و«جيبوتي». كما تُعد اللغة العربية إحدى أكبر عشر لغات إنتشارا في العالم، حيث تحتلُّ المرتبة الرابعة من حيث عدد الناطقين بها، أي ما يعادل (6.6٪) من سكان الكرة الأرضية.



غير أن المتجول في الفنادق والمطاعم الكبرى بدولنا العربية، سيُصدم من جرّاء الاستعمال المُفرط للُّغات الأجنبية، في حين أن اللغة العربية تستعمل كلغة ثانوية في القلّة القليلة من هذه الهياكل النشطة التي يفترض أنّها أول من يُروّج للغة العربية والثقافة العربية.. إذ تُعتبر الفنادق والمطاعم أول ما يقصده السُيّاح ورجال الأعمال في تنقلاتهم إلى المنطقة العربية. كما أن المتجول في شوارعنا -خاصة بدول المغرب العربي- سيُصاب بالذهول لا محالة!.. وقد يصعب عليه التصديق بأنّه في بلد عربي، وذلك من كثرة ما يطرقُ سمعهُ من المصطلحات بلغات العالم كلّه: في واجهات المحلات، وأسماء المنتجات، وواجهات الهواتف والمواقع، والتلفزيون.. وقد يندر جدا أن توجد لوحة إشهارية مكتوبة باللغة العربية، حيث أصبحت العربية غريبة في عقر دارها، بل أصبحت كالرمّة البالية التي يُدعى الله أن يرحمها في رمسها!

> **"غير أن المتجول في الفنادق والمطاعم الكبرى بدولنا العربية، سيُصدم من جرّاء الاستعمال المُفرط للغات الأجنبية، في حين أن اللغة العربية تستعمل كلغة ثانوية... التي يفترض أنها أول من يُروّج للغة العربية والثقافة العربية.. "**

إذن، من المهم جدا أن يعيَ المواطن العربي أن مهمّة الحفاظ على لغة القرآن مسؤولية كل فردٍ ناطقٍ بها، منتمٍ إليها، وأن يعيَ أن التخلي عنها إيذان بانقراضها وفنائها.

للتذكير فقط، فإن يوم 21 فيفري هو يوم عالمي للُّغة الأم (**langue maternelle**)، وليس يوما عالميا للغة العربية، كما يتوهّمُ البعض! [إهـ].

«ما نحن فيمَن مضى،
إلا كبقلٍ بين أصولِ نخلٍ طوالٍ..
فما عسى أن نقول نحن،
وأفضل منازلنا أن نفهم أقوالهم،
وإن كانت أحوالنا لاتشبه أحوالهم».

[أبو عمرو بن العلاء]

مجلّة الخريدة

من التراث

من التراث

إعجاز القرآن

نظرة في كتاب إعجاز القرآن والبلاغـة النبويـة للرافعي

محمد بلكيف

مراجعة: رؤوف بن الجودي

• مقدمة

لا يزال القرآن الكريم مصدرَ إعجابٍ ومبعثَ إعجازٍ، منذ أنزله الله ﷻ على نبيه محمدﷺ؛ ونفوس العرب تزداد منه تعجبا وله إعجابا وبه تأثرا، فهو -أي القرآن- لم يكن برهانَ نبوةٍ فحسب؛ بل كان منهجَ حياةٍ، ومصدر تشريعٍ وإلهامٍ، خاصة عند العرب الأوائل الذين كان لهم حظٌّ وافرٌ من العلم باللسان الذي اِختصهم الله به، وهكذا كلما وَفُرَ نصيب المرء من هذا العلم ازداد بهذا القرآن إعجابا وتأثرا وازداد له فهما وتدبرا، ولذلك ذهب العلماء يلتمسون منه مواضع الإعجاز، فألفوا في هذا الكتب تتلوا الكتب، كل حسب ما فتح الله له في هذا الباب، ولكثرة مواد إعجازه فقد اختلف العلماء رحمهم الله في طرائق التصنيف، ولعل أكثرها توفيقا ما كان مركزا على حقيقة الإعجاز ومادته الخام، ألا وهو الإعجاز اللغوي، وكان من أحسن من ألف فيه، حجَّةُ الأدب ورافعُ راية القرآن «مصطفى صادق الرافعي»[1]، ضمن كتابه «*تاريخ آداب العرب*» الذي أفرد الجزء الثاني منه لبيان إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية.

فرأينا أن نقوم بقراءة ولو سريعة لهذا الكتاب حتى نعرف أهم ما ضمنه صاحبه، فقدمنا لك هذه الكلمات.

• توطئة

إن الكلام على إعجاز[2] القرآن الكريم عند إمام البلغاء من المتأخرين السيد «مصطفى صادق الرافعي» كلامٌ يطولُ، والخائض فيه يحار من أي الوجوه يبدؤُهُ، وماذا يأخذ منه، وماذا يترك. وحسبنا في هذه البحث الوجيز أن نُشيرَ إلى أمرٍ مهمٍ للغاية؛ هو أهم النقاطِ التي تفرَّد الرافعي بالكلام عليها في باب الإعجاز.

لقد تكلم الرافعي -رحمه الله- على إعجاز القرآن الكريم من وجوهٍ عديدة، من حيث مفرداته، وتأثيره في كلام العرب، وتكلم في الإعجاز السياسي والإعجاز النفسي والإعجاز العلمي والإعجاز البلاغي.. إلى أن وصل -حسب ما صرَّح- إلى غرض الكتاب ومقصوده. فأخذ في تفصيل ذلك عرضا وتحليلا، فقال: «ونحن الآن قائلون فيما هو الإعجاز عند علمائنا - رحمهم الله - وما وضعوه فيه من الكتب؛ ثم ما هي حقيقته عندنا؛ ثم نبسط الكلام فضلاً من البسط في إعجاز القرآن بأسلوبه وبيانه مما يماسُّ اللغةَ ويستطرق إليها»[3].



و نحـــن الأن مُوقفوك على أهم ما جاء به الرافعي في بابة الإعجاز، وإنما قصدنا التلميـــح والتنبيه مع الاِختصار.

• عرض شامل للكتاب

جاء كتاب الرافعي في جزأين على الحقيقة، الأول في إعجاز القرآن الكريم، والثاني في البلاغة النبوية؛ لذلك فإن العنوان الكامل للكتاب هو «إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية»[4]، وهو كتاب من الحجم المتوسط، صنَّفه صاحبه كجزءٍ ثانٍ لكتابِهِ «تاريخ آداب العرب»[5]، تناول فيه جوانب عديدة تخص القرآن الكريم، لا تُعدُّ كلها من صميمِ الإعجاز، ولكنها تخدم موضوعَهُ خدمةً جليلةً، فقد استهلَّهُ بالحديث عن القرآن الكريم، وجمعه، ثم تحدث عن القراءات ووجوهها، ولغة القرآن، ومعنى أحرفه السبعة؛ وكما هو معلوم، فإنَّ هذه المباحث كلها تندرجَ ضمنَ علوم القرآن... ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن إعجاز القرآن الكريم في مفرداته وتراكيبه وأصواته، وما إلى ذلك مما سيأتي بيانه. كما تعرَّض لقضية التحدي والمعارضة، وقضية بلاغة القرآن الكريم، وما صُنِّف فيها طيلة ثلاثة عشر قرنا.

• وجوه إعجاز القرآن الكريم عند الرافعي

يرى الرافعي أن القرآن الكريم قد أثَّر في اللغة العربية تأثيرا ليس له نظير، حتى إنَّ القائل ليقول إنها لغة جديدة، فقد ظهر إعجازه فيها بحيث جعلها مناسبة لكل زمان ومكان، وسبب ذلك أنه جعلها ملائمة مسايرة لهذا الكون في كل مظاهر الحياة، وهذَّبها من كل ما كان يشوبها، يقول -رحمه الله-: «**نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملة واحدة وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجزاها في ظاهرها على بواطن أسرارها**»[6].

لم يأت القرآن الكريم بلغة جديدة، فاللغة هي اللغة، والمفردات هي المفردات، ولكنه ألبسها ثوبا جديدا، ستر عنها عيوب العصبية، ومحى عنها أدران الجفاء، وكساها جبة قشيبة زينتها الوقار، ووشيها الجمال، حتى ليخيل للسامع أنها لغة جديدة، ليست اللغة التي يعرفونها، «**قد أظهرها مظهراً لا يقضى العجب منه، لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود؛ لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم، ورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة**»[7].

> ورغم تعدد لغات العرب في الجاهلية واختصاص كل قبيلة بلغتها، وحرصهم على إبرازها أمام بعضهم البعض، إلا أن القرآن قد أنساهم كل ذلك، وجعلهم يتوجهون إلى لغة القرآن الكريم، في اِنبهار تام ناسين ما كانوا عليه من تعصب للغاتهم...

فلم تعد هذه اللغة، بعد نزول القرآن، عنوان بداوة جافية، ولا رمز عصبية قاسية، ولا دليل طبيعة على قوم مخصوصين، بل صارت تلائم كل طبع سليم، وتشدوا بكل عاقل حليم، وتصدق على أهل البادية كما تصدق على أهل الحاضرة، شاملة عامة لكل أنماط الحياة، وكل صنوف الناس، وما ذلك إلا من القرآن.

ورغم تعدد لغات العرب في الجاهلية واختصاص كل قبيلة بلغتها، وحرصهم على إبرازها أمام بعضهم البعض، إلا أن القرآن قد أنساهم كل ذلك، وجعلهم يتوجهون إلى لغة القرآن الكريم، في اِنبهار تام ناسين ما كانوا عليه من تعصب للغاتهم، فالقرآن قد جمع العرب على لغة واحدة هي أرقى من جميع ما عرفوه من قبل؛ وقد بين الرافعي هذا بقوله: «**ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن قد جمع أولئك العربَ على لغة واحدة، بما استجمع فيها من محاسن هذه الفطرة اللغوية التي جعلت أهلَ كل لسان يأخذون بها ولا يجدون لهم عنها مَرغَباً، إذ يرونها كمالاً لما في أنفسهم من أصول تلك الفطرة البيانية، مما وقفوا على حد الرغبة فيه من مذاهبها دون أن يقفوا على سبيل القدرة عليه**»[8].

•القرآن والعلوم.

لما كان هذا القرآن الكريم إلهي المصدر، فإن عجائبه

لا تنقضي، ومعجزاته لا تنتهي، فظهرت في نظمه تارة وفي شرائعه وأحكامه تارة وفي معجزاته العلمية تارة أخرى وهكذا...فمن الأشياء المهمة التي كان الرافعي من السباقين إليها هو تطرقه للإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فهو يراه سببا أولا في النهضة العلمية التي عرفها العرب، يقول: «**فإنما كان القرآن أصلَ النهضة الإسلامية وهذه كانت على التحقيق هي الوسيلةُ في استبقاء علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها، وإطلاق العقل فيما شاء أن يرتعَ منها، وأخذِهِ على ذلك بالبحث والنظرِ والاستدلالِ والاستنباط، وتوفير مادة الرَّوية عليه بما كان سبباً في طلب العلم للعمل، ومزاولة هذا لذاك، إلى صفاتٍ أخرى ليس هذا موضع بَسطها**»[٩].

فالقرآن قد حفظ للبشرية حضارتها، بما لعبه من دور في نقل العلوم من جيل إلى جيل آخر، ومن أمة إلى أمة أخرى، وبما لعبه من دور في تهذيب هذه العلوم وتنقيتها مما كان يمكن أن يعطل حضارة البشرية، أو يؤخر منها، كبعض ترهات اليونان والفرس، فلم يبق من العلوم إلا ما يخدم الحضارة الانسانية، ويدفعها إلى الأمام، وبما لعبه من دور في دفع نفوس أتباعه إلى البحث والتفكير وهجر حياة الجمود والفراغ.

•حقيقة الإعجاز عند الرافعي

رغم تعدد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ورغم ذكر الرافعي لكل هذه الوجوه، إلا أنه يرى أن حقيقة الإعجاز متركزة في جانب معين، وإنما بقية الجوانب مكملات، فهو يعتبر - أي الرافعي - هذا المبحث أهم عناصر الإعجاز، بل يعتبره غاية الكتاب، وحقيقة الإعجاز، يقول: «**وهذا هو الغرضُ الذي أردنا إليه الكلامَ في كل ما مرَّ من هذا الباب جهة إلى جهة، وأرَغْنا معانيه فصلاً إلى فصل، وخُضنا في ضروبه معنى إلى معنى، وقد وقَّفناك منه على وجوه عدة، من سر كان مكتوماً، وخبء كان مجهولاً، ومقطع من الحق كان مشتبهاً، وكلها خارج عن طوق الإنسان عندما يتعاطى وعندما يتوهم وعندما يثبت، وكلها لم يشهده الزمن إلا مرة واحدة**»[١٥].

ثم يردف هذا مبينا حقيقة الإعجاز: «**أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن، وما حققناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر وإنضاج الروية.... نقول: إن الذي ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا، أن القرآن معجز بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة؛ وإنَّما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية،...**

فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنساني؛ ومعجز كذلك في حقائقه؛ وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء؛ فهي باقية ما بقيت، وقد أشرنا إليها في بعض الفصول المتقدمة؛ على أنها ليست من غرضنا في هذا الباب وإنَّما مذهبنا بيانُ إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي. لأننا إنما نكتب في هذه الجهة من تاريخ الأدب دون جهة التأويل والتفسير»[١٦].

إذن الإعجاز الحقيقي كائن في جهة معينة هي جهة الكلام نفسه، ولا غرابة فالقرآن كلام، والعرب أهل لسان، والمعجزة تأتي عادة من جنس ما يحسنه من قُصِدَ إعجازه، أو بالأحرى من جنس ما يختص فيه من قُصِدَ إعجازه، بل من عجيب الأمر أن هذا القرآن نزل في زمن قد بلغ فيه أهله ذروة الفصاحة وقمة البلاغة، كما نزل في أناس تميزوا بين قومهم بالسبق في هذا الميدان، فقريش لم تكن تدانيها قبيلة في فصاحة ولا بلاغة، بل كانت تعقد في منصات أسواقها مفاخرات الشعراء، وملاسنات الخطباء، فأراد الله عزو جل أن يظهر عجزهم مع هذا كله وفي كل هذا.

وعلى هذا الأساس فقد تحدى الله ﷻ العرب في أن يأتوا بمثل القرآن فصاحة وبلاغة، حتى أعجزهم عن ذلك وأقروا بعدم قدرتهم على مجارات أمر لا قبل لهم به، وإن كانوا من قبل يعتقدون أنهم هم أرباب هذه الصنعة وفرسان هذا الميدان، يقول الرافعي: «**فتحداهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه، وسلك إلى ذلك طريقاً كأنها قضية من قضايا المنطق التاريخي، فإن حكمة هذا التحدي وذكرهِ في القرآن، إنما هي أن يشهد التاريخ في**

كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللدُّ والفصحاء اللسن، وهم كانوا في العهد الذي لم يكن للغتهم خير منه ولا خير منهم في الطبع والقوة، فكانوا مَظنةَ المعارضة والقدرة عليها... »[12].

و إمعانا في المعارضة فقد كان التحدي على مراحل، وكأن القرآن أراد من العرب أن يقروا بهذا العجز صاغرة نفوسهم، المرة تلو المرة، فكلما عجزوا عن مرحلة إلا وزادهم فوقها درجة فبدأ بتحديهم في أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا طالبهم بأن يأتوا بعشر سور مفتريات، فلما عجزوا رفع التحدي إلى أعلى مراتبه، فطالبهم بأن يأتوا بسورة واحدة، فاستمر العجز ولجؤوا بعدها إلى ما لجؤوا إليه من التهم والشتم وغيرها....

• أسلوب القرآن الكريم

يرى الرافعي أن الأسلوب هو مادة الفخر في كلام العرب، وعلى ذلك فمن البديهي أن يأتي القرآن بأسلوب أرقى وأعلى من أسلوبهم، حتى يتحقق معنى الإعجاز على حقيقته يقول الرافعي: «**لما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق. ليس في ذلك إعناتٌ ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته - ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود؛ حتى أحسُّوا بضعف الفطرة القوية، وتخلف الملكة المستحكمة؛ ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو اعتراض مساغه إلى هذه النفس، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم واطلع على قلوبهم...**»[13].

نعم، لقد كان القرآن الكريم على هذا النحو أو فوقه، بما جاء به من أسلوب أرقى بكثير مما ألف العرب من كلام بلغائهم وفصحائهم، ومرد ذلك كما يرى الرافعي إلى أن الأسلوب مترجم لنفسية صاحبه، فما اختلاف الأساليب إلا ضرب من اختلاف النفسيات، فأنت تجد الكاتب قد عكف على كلام كاتب آخر ما ترك له حرفا إلا وقد حلله وعرضه على النظريات النقدية محاولا تفسيره وتخريجه، وقد يكون على درجة كبيرة من الاعجاب به، وقد يكون صاحب الكلام من أساتذته ومعلميه، ومع ذلك إذا حاول أن يجاريه في أسلوبه وجدت بين الرجلين من البون والفرق الشيء الكثير، وما ذلك إلا لأن بين النفسيتين اختلافا كبيرا، ولما كان القرآن الكريم منزها عن هذه الطباع البشرية، كان أسلوبه خارجا عن ضروب أساليب البشر، وفي هذا يقول الرافعي: «**...وأكبر السبب في ذلك أن هذا القرآن الكريم ليس عن طبع إنساني محدود بأحوال نفسية لا يجاوزها**»[14].

و لعل هذا الأمر محل اتفاق بين الكثير من الدارسين للأدب البلاغة خاصة من المعاصرين حتى قيل حديثا إن الأسلوب هو بمثابة بصمة الأصبع، ولذلك استحال على العرب، بل ويستحيل على البشرية أن تأتي بمثل هذا القرآن لأنه ليس من قبيل أساليبها النابعة من نفسياتها.

• نظم القرآن

لما كان الكلام ينتظم من ثلاثة :حرفٍ وكلمةٍ وجملةٍ، كان لا بد أن يظهر إعجاز القرآن الكريم في كل قسم من هذه الأقسام، وظهور الإعجاز في هذه الثلاثة مجتمعة وفي آن واحد هو ما جعل علماء العرب يركزون على قضية النظم، واعتبروها من أظهر وجوه الإعجاز، وقد تطرق إليها الرافعي، وتناولها بما يخص القرآن الكريم دون غيره من كلام البلغاء، ومع ذلك يذهب الرافعي في قضية النظم مذهب كبار البلاغيين أمثال الجرجاني، والباقلاني وهو يرى أن نظم القرآن مخالف لنظم كل كلام، وبلاغته أرقى من كل بلاغة يقول: «**ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن، وبين هذه الأنواع في كلام البلغاء، أن نظم القرآن يقتضي كلَّ ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً بحيث يُبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه...**»[15].

وقد ابتدأ الرافعي قضية نظم القرآن بالحديث عن الحرف والصوت، فأظهر ما للحرف من إعجاز في صوته ومخرجه، وكل حرف في القرآن الكريم اختير له الموضع

الذي لا يصلح له إلا ذلك الحرف، يقول: «**فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً**»(16).

ولذلك كان من معجزة القرآن أنه يسترق العقول ويأسر القلوب بما يقذفه من جرس في الآذان، وبما يلقيه من حلاوة على المسامع، فتطرب النفس عند سماعه في خشوع ورهبة، فلا هي تستكره منه حرفا، ولا هي تستهجن منه وقعا، ولا تستطيع إلا أن تستسلم له وتسترسل في سماعه، يقول الرافعي: «**فجعلت المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن يسمعه بدٌّ من الاسترسال إليه والتوفر على الاصغاء، لا يستمهله أمر من دونه وإن كان أمر العادة، ولا يستَنسئه الشيطان وإن كانت طاعته عندهم عبادة؛ فإنه إنما يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مَقطَعاً مَقطَعاً ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة**»(17).

”كان من معجزة القرآن أنه يسترق العقول ويأسر القلوب بما يقذفه من جرس في الآذان.... فلا هي تستكره منه حرفا، ولا هي تستهجن منه وقعا، ولا تستطيع إلا أن تستسلم له...“

ثم لا شك أن الله علم أن هذه النفس –وهو خالقها– تنفر مما يكدر صفوها وتنجذب نحو ما يؤنسها فجاء القرآن الكريم على ذلك، ومما تجدر الاشارة إليه أن القرآن قد راعى قضية الصوت مراعاة كبيرة، ولذلك تجده يستعمل الحرف على ما يقتضيه موضوع الآية، وبالجملة فإن نظم القرآن على مستوى الصوت جاء غاية في الاحكام يقول بعد كلامه السابق: «**فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جُمله، ألحاناً لغوية رائعة؛ كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمرٌ لا قِبل لهم به، وكان ذلك أبينَ في عجزهم**»(18).

• **الكلمات وحروفها**

كان للكلمة نصيبها من الإعجاز في القرآن الكريم إذ لا يتأتى النظم إلا بها، وموقعها من النظم موقع خطير، ذلك أن الكلمة لها تأثير كبير في النفس الانسانية، وهذا أمر ملاحظ لا حاجة إلى التدليل عليه، فكان من بلاغة القرآن الكريم أن اختار لكل معنى كلمة هي أحسن كلمة تؤدي ذلك المعنى، لا تقوم كلمة أخرى مقامها ولو كانت من مرادفاتها أو قريبة منها، وعلى هذا الشأن جاء القرآن كله، يقول الرافعي: «**فلا بد في مثل نظم القرآن من إخطار معاني الجمل وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تنِدُّ لفظة، ولا تتخلف كلمة؛ ثم استعمال أمسِّها رحماً بالمعنى، وأفصحها في الدلالة عليه، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناء، وأكثرها غناء، وأصفاها رونقاً وماء، ثم اطراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل...**»(19).

ثم إن هذا الضرب من الإعجاز لم يقف عند هذا الحد بل تعداه حتى صارت اللغة كأنها غير اللغة، بل صارت اللغة أعلى وأرقى مما هي عليه، وما ذلك إلا بطريقة الاستعمال وحسن الاختيار، وموافقة اللفظ للمعنى، وموافقته للصوت الصرفي، ثم موافقة الكلمة لما يجاورها، لا في المعنى حسب، بل في المعنى وفي النظم الموسيقي، ويضرب لذلك الرافعي مثالا لا بأس أن نورده بحرفه على طوله يقول: «**من ذلك لفظة (النذُر) جمع نذير؛ فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونُبوهِ في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام. فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36)﴾.

فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة

عليه مستخَفاً بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم ردد نظرك في الراء من (تماَرَوا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرَهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر)» [20].

ومن وجوه الإعجاز في هذا الباب، أنك لا تجد في القرآن حشوا ولو بحرف واحد، فضلا عن كلمة، وقد نبه الرافعي إلى ذلك تحذيرا مما قد يتبادر إلى الذهن من اصطلاحات بعض النحويين قال: «ثم الكلماتُ التي يُظن أنها زائدة في القرآن كما يقول النحاة، فإن فيه من ذلك أحرفاً: كقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾. وقوله: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ فإن النحاة يقولون إن «ما» في الآية الأولى و«أن» في الثانية، زائدتان، أي في الإعراب. فيظن مَن لا بصرَ له أنها كذلك في النظم ويقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد بالآية الأولى، تصويرُ لين النبي ﷺ لقومه، وإن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المد في « ما » وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تُشعر بانعطاف وعناية لا يُبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارَّة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى.

والمراد بالثانية تصويرُ الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسفَ وأبيه عليهما السلام وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب تؤكدهما وتصف الطربَ لمقدمه واستقراره، غُنّةُ هذه النونِ في الكلمة الفاصلة؛ وهي «أن» في قوله: ﴿ أَنْ جَاءَ ﴾» [21]. و حسبنا في هذا الباب ما ذكرنا والله الموفق.

- **الإعجاز في الجمل والتراكيب**

ليس باب الجمل والتراكيب بأقل شأنا من سابقَيْهِ في أهمية النظم القرآني ولا في درجة القوة البلاغية، ولذلك ثلَّثَ به الكاتب فبين أن القرآن الكريم قد أتى على نسق في التركيب غاية في الابداع والحسن.

إن نظام التراكيب الذي جاء به القرآن الكريم يختلف كل الاختلاف عما عهده العرب من نظام، رغم أن اللفظ واحد، ولكن مكمن الإعجاز هو ذلك التركيب البديع يقول الرافعي: «**أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم، فهي كيفما أدرتها وكيفما تأملتَها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ومن أي جهة وافقتها؛ فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب**» [22].

وإن التناسق الكبير في تركيب الجمل واحد من مظاهر هذا الإعجاز، وليس هذا التناسق مقصورا على جزء من القرآن دون غيره، بل هو السمة البارزة لكل آي القرآن من أوله إلى آخره، يقول الرافعي: «**فأنت ما دمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام**» [23].

ثم إن القرآن الكريم قد جاء على وضع لم تألف العرب وضعا مماثلا له، لا من حيث حسن التأليف ولا من حيث الدلالة على المعاني المرادة في أحسن صورة.

" فأنت ما دمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام، كأنها تفضي إليك جملة واحدة حتى تؤخذ بها ... "

على أن هذه الألفاظ هي نفس الألفاظ التي كان يعرفها الناس، بيد أن تركيبها في القرآن يجعلها متميزة عن غيرها من الكلام، حتى إن كثيرا منها قد سار مسيرة المثل، فكان القرآن بهذا مصدر الاقتباس، ومنه يؤخذ التمثيل والاستعارة وسائر ألوان البلاغة، حتى كان السبب في ظهور علم البلاغة كما يرى ويصرح به الرافعي.

هذا ملخص ما ذكره الرافعي رحمه الله في إعجاز النظم القرآني في مستوياته الثلاثة، مستوى الحرف ومستوى الكلمة ومستوى الجملة، وهذا ملخص ما ذكره جملة حول إعجاز القرآن الكريم.

• خاتمة

يعتبر كتاب الرافعي «*إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*» كتابا شاملا لكل أنواع الإعجاز، مع قوةٍ أسلوبه، ورصانة لغته، فهو يسوق لك كلام الأولين بطريقة المعاصرين، ويسوق لك طريقة المتأخرين بأسلوب الأولين.

وقد أبدع في كتابه هذا أيما إبداع، وأحسن تقسيمه، وتبويبه، وأفاض فيه واستفاض، وجمع فيه أغلب ما قال العلماء قبله، وما هذه إلا نظرة سريعة في هذا الكتاب الذي ننصحك بقراءته.

على أننا سنرجع بإذن الله ﷻ إلى مسألة الإعجاز القرآني والبلاغة القرآنية فيما يستقبل من أيام الله - إذ باب الإعجاز لا يدرس في عجالة - حتى نقف على بعض كنوز هذه اللغة العجيبة، وما أودعه الله ﷻ في كتابه من جواهرها الثمينة والله ولي التوفيق.

---

1) مصطفى صادق الرافعي(1937-1881م): عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتَّاب. له ديوان شعر (3 أجزاء)، وكتاب «تاريخ آداب العرب» (3 أجزاء)، و«تحت راية القرآن» رد فيه على مقالات للدكتور طه حسين، و«وحي القلم» (3 أجزاء)، وغيرها من المؤلفات.

2) يقول العلامةُ الأديب «محمَّد محمَّد شاكر» رافعا الحجاب عن لفظة الإعجاز: «(إعجازُ القرآن)، لفظٌ وُضِعَ في أواخر القرن الثالث للهجرة، ولم يكد حتَّى أحدثَ تاريخا مُستفيضا رائعا، شارك فيه أكبرُ علماءِ الأمَّة، في اللغةِ والبيان والتفسير، وعلوم القرآن وعلم الكلام.».(*)

(*) «مداخل إعجاز القرآن». محمود محمَّد شاكر. [ص8]. طبعة المدني.

3) «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية». مصطفى صادق الرافعي. [ص 98]. دار الكتاب العربي.

4) طُبعَ الكتابُ على حدى سنة 1927م، حيثُ تكفَّلَ الملك فؤاد بنفقات الطباعة. [راجع «رسائل الرافعي». الرسالة100. ص135. طبعة الدار العمرية].

5) كتبَ أمير البيان «شكيب أرسلان» عن كتاب الرافعي في صدر جريدة «المؤيّد»: «... فلو كان هذا الكتابُ خطًّا محجوبا في بيت حرام إخراجه للناس منه لِاستحقَّ أن يحجَّ إليه، ولو عُكف على غير كتاب الله في نواشِئ الأسحار لكان جديرًا بأن يُعكف عليه. ولا عيبَ فيه غير أنَّهُ حديثٌ وأنَّ للقديم حرمةً، ولا تمتازُ عنه كتب الماضين في المتانة ولكن التقدُّمَ في العصر عند أهل الأدب ذمَّةٌ».(*)

(*) «رسائل الرافعي». الرسالة100. ص135. طبعة الدار العمرية

6) « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية». مصطفى صادق الرافعي. [ص 55]. دار الكتاب العربي.

7) المصدر السابق. [ص55]

8) المصدر السابق. [ص57]

9) المصدر السابق. [ص81]

10) المصدر السابق. [ص98]

11) المصدر السابق. [ص109]

12) المصدر السابق. [ص118-117]

13) المصدر السابق. [ص131]

14) المصدر السابق. [ص144]

15) المصدر السابق. [ص145]

16) المصدر السابق. [ص146]

17) المصدر السابق. [ص147]

18) المصدر السابق. [ص148]

19) المصدر السابق. [ص156]

20) المصدر السابق. [ص157]

21) المصدر السابق. [ص159]

22) المصدر السابق. [ص166]

23) المصدر السابق. [ص166]

مجلّة الخريدة



في العدد القادم

سنضيف منبرا للقراء

«الخريدة»: مجلّـــــةٌ إلكترونيـــــــــةٌ

تصدرُ كلَّ شهرين تُعنى بالأدبِ، والفكرِ، والثقافةِ

صفحتنا على الفيس بووك: majala.kharida

البريد الإلكتروني: majalat.alkharida@gmail.com